وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة د-يحي فارس (المدية)
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الانسانية
شعبة التاريخ

مذكرة بعنوان

دراسة كتاب " كتابات طوكفيل عن الجزائر 1837 – 1847 " (طوكفيل بين الديمقراطية والاستبداد)

مذكرة لنيل شهادة الماستر في التاريخ
تخصص: المقاومة والحركة الوطنية

إعداد الطالبات:
- سهيلة برجم
- فاطمة الزهراء طراشي

إشراف الدكتورة:
- رزيقة محمدي

السنة الجامعية: 2021-2022م/1442-1443هـ

كلمة شكر

الحمد لله والثناء والشكر لله اعلي القدير على نعمه الظاهرة والباطنة وتوفيقنا لإنجاز هذا العمل.

اعترافا بالفضل والتقدير بالجميل لا يسعنا بعد انتهاءنا من اعداد هذا البحث إلا أن نتوجه بجزيل شكرنا وامتناننا إلى الأستاذ المشرف: محمدي رزيقة لإشرافها على المذكرة وعلى ملاحظاتها القيمة وتوجيهاتها السديدة وتصويباته الدقيقة ونصائحها الطيبة وكان لها الفضل في اخراج هذه الدراسة المتواضعة إلى حيز الوجود كاملة رغم التزاماتها العديدة جعل الله ذلك في ميزان حسانتها.

كما نتوجه بالشكر الجزيل إلى كل أساتذة قسم التاريخ

جامعة الدكتور يحي فارس –المدية –

كما لا يفوتنا أن نشكر الوالدين الكريمين وكل من ساعدنا سواء بمعلومة أو نصيحة.

إهداء

الحمد لله عز وجل على عونه ومنه لإتمام هذا البحث إلى الذي دفعني قدما لتحقيق مبتغاي، إلى الذي سهر على تعليمي بتضحيات جسام مترجمة في تقديسه للعلم، إلى من أحمل اسمه بكل فخر، إلى سندي " أبي الغالي " حفظه الله ورعاه إلى من رعتني حق الرعاية وصبرت معي وحملت همي، وكانت لي دعواتها ترافقني خطوة خطوة في مشواري، إلى نبع الحنان والروح الجميلة " أمي الغالية " أعز ما أملك على قلبي، أدامها الله مصباح بيننا وجزاها الله عني خير الجزاء في الدارين، إلى أجمل ما وهبتني الحياة أخوتي: وسام، زهرة، أنور، يسرى، وخاصة أصغرهم الغالي " محمد أمين".

إلى بركة العائلة أجدادي وأخص بالذكر جدي " محمد" وأسأل الله له الشفاء وأطال الله في أعمارهم جميعا.

إلى كل الأعمام والأخوال وإلى جميع الأهل دون استثناء

إلى أخواتي وصديقات العمر إلى من تجمعني بين سعادتي وحزني وإلى من رافقتني في كل تفاصيل حياتي: " مروى، ياسمين، رتيبة، نسرين، باية، فتيحة، سوسن، وداد، سعاد، سميرة، مريم، فرح، بشيرة، سندس، أم قمر، شيماء، زينب وميسا..."

وإلى من قاسمتني مشقة هذا العمل أختي وحبيبتي " فاطمة الزهراء" حفظها الله ورعاها وأدامها لي نعم السند والصديقة.

سهيلة

إهداء

بكل الحب والوفاء..... بخالص البذل والعطاء

أهدي جنى هذا الغرس وثمار الجهد.

إلى القلب الحنون الذي رواني من حبه ورحمته حتى الثمالة، الى من كانت بجانبي بكل المراحل التي مضت اليك انت ايتها الدرة النفيسة أمي العزيزة أدامها الله فوق رؤوسنا " فايزة "

إلى من علمني أن أقف وكيف أبدا الألف ميلا خطو بخطوة إلى من تحدى الصعاب إلى من تعب وشقي في تعليمي حتى وصولي إلى هذا المستوى إلى من أرشدني في الدنيا أبي الحنون "يعقوب"

إلى من كانوا يضيئون لي الطريق ويساندونني في العيش والهناء إخوتي وأخواتي "مسعودة "، " مريم " أيمن "، " ياسمين " حفظهم الله ورعاهم.

إلى بركة العائلة جدتي الحبيبة حفظها الله وأطال في عمرها

إلى صديقة العمر وتوأم روحي حبيبتي " مريم " حفظها الله. إلى أجمل الصديقات الطيبات " خولة " "فايزة " زهوة" "بشرى" "فاطمة" "إلهام" " سهام" " عائشة" "فاطمة " نبيلة" " أحلام" " رتيبة" " سماح" " ياسمين "أمال " " كريمة" " حسيبة " " سعيدة " دليلة " " خضرة " " حكيمة" أية " " رحمة" "ايمان " صباح" مريم" " فضيلة "

إلى أخي العزيز الذي لم تلده أمي " نور الدين"

إلى زميليا في المشوار الدراسي " مصطفى " " فارس " "مروان"

إلى من أمسك بيدي وعلمني حرفا إلى من كانوا سند لي إلى من لهم الفضل بإرشادي إلى طريق العلم والمعرفة. إلى أساتذتي الأفاضل

إلى أستاذتنا الفاضلة " محمدي رزيقة " حفظها الله.

إلى من قاسمتني مشقة هذا العمل روح قلبي وصديقتي وحبيبتي " سهيلة " التي كانت السند لي في كل شيء التي كان لها فضل عليا أطال الله في عمرها.

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع. الذي هو عربون تقدير ومعزة واقتدار.

فاطمة الزهراء

قائمة المختصرات

قائمة المختصرات

الاختصار	الكلمة
تر	الترجمة
ج	الجزء
ج. ش. أ. إ	جريدة الشرق الأوسط الالكترونية
د. د. ن	دون دار نشر
د. س. ن	دون سنة نشر
د. ط	دون طبعة
ص	صفحة
ص ص	من الصفحة إلى الصفحة
ط	الطبعة
ط. خ	طبعة خاصة
ع	العدد

المقدمة

المقدمة

يعتبر القرن التاسع عشر من أهم القرون التي عرفت صراعا فكريا بين أهم التيارات والمذاهب، التي بدأت تظهر في أوروبا، ويعتبر هذا القرن صانع المعتقدات السياسية والأيديولوجية لأوروبا المعاصرة إن لم نقل العالم، وذلك على اعتبار الصراع الفكري قد بلغ مرحلة التشكل النهائي.

لقد ساهمت في هذه الحركة الفكرية شخصيات لاتزال تحظى إلى وقتنا هذا بكثير من الاحترام وتستدعي اهتمام الدارسين والمفكرين ولعل ألكسيس دو طوكفيل من تلك الشخصيات

فقد اعتبر طوكفيل من أهم مفكري عصره وذلك بالنظر إلى الأفكار التي آمن بها ودافع عنها وسجلها في مؤلفاته، وسنحاول في موضوعنا هذا التعرض إلى دراسة هذه الشخصية الفكرية، وذلك بعرض حياته الشخصية والعلمية، ومعرفة أهم أفكاره والتعرف على موقفه من احتلال الجزائر على اعتباره معاصرا لذلك الحدث الرهيب، بل عضوا في الكثير من اللجان الخاصة بالجزائر.

أسباب اختيار الموضوع

ونظرا للأهمية التي يكتسبها موضوع دراستنا لكتابات طوكفيل ودوره البارز في السياسة الاستعمارية الفرنسية عامة والفكر الاستعماري خاصة، باعتباره منظر مفكر للاستعمار في الجزائر، استطاع من خلال نصوصه وتقارير التي كتبها عن الجزائر إعداد فرنسا بمعلومات في غاية الأهمية وكشفت عن توجهاته ورؤيته الاستعمارية وأبسط الطرق والوسائل المساعدة على احتلال الجزائر وفرص السيطرة عليها.

وقد وقع اختيارنا لهذا الموضوع لعدة اعتبارات:

- ندرة الدراسات المتخصصة في هذا الموضوع

- الرغبة والميل الشخصي لدراسة تاريخ الجزائر خاصة فترة الاستعمار وذلك من أجل تقديم نظرة عن حقيقة استعمار الجزائر.

- محاولة الالمام ببعض التفاصيل المهمة الخاصة بموضوع دراستنا من خلال التقصي والبحث في تاريخ الجزائر، لإثراء معلوماتنا ومعلومات الطلبة على وجه الخصوص ومكتبة جامعة المدية على وجه العموم، ضف إلى ذلك توضيح هذه المسألة وتقديمها في قالب تاريخي للإفادة والاستفادة وإزالة الغموض واللبس للمتطلعين عليها.

- التعرف على الدور الذي لعبه طوكفيل في السياسة الاستعمارية والتعرف على حقيقته.

- كما أن الموضوع لم يعطى حقه من الدراسة والبحث ولم يعطى أهمية قصوى مقارنة بالدراسات الأخرى.

- بالإضافة إلى وجود دوافع ذاتية وأخرى موضوعية، الدوافع الذاتية تتمثل في الرغبة في التعرف على شخصية طوكفيل الجديرة بالدراسة، نظرا لعدم تحصلنا في مسارنا الدراسي على معلومات كافية حوله، أما الدوافع الموضوعية فأهمها بالغرم من كون طوكفيل من أبرز المفكرين السياسيين في تاريخ فرنسا إلى أن شخصيته لم تتلقى دراسة وافية بالعربية وبقيت العديد من جوانبه تواجه هاجس الغموض، خصوصا في كتاباته التي لم تعطى مستحقا من الدراسة، وهذا ما دفعنا إلى الخوض في مسار هاته الشخصية.

الإشكالية

حيث تمثلت الإشكالية الرئيسية كالتالي:

- كيف كانت رؤية طوكفيل الاستعمارية باعتباره من أهم المنظرين للفكر الاستعماري الفرنسي؟ ومساهمته الفعلية في رسم معالم خطة احتلال الجزائر؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية جملة من الأسئلة الفرعية:

- من هو طوكفيل؟

- ما هي أهم أفكاره؟

- وهل كانت كتاباته عن الجزائر بصورة حقيقية عن ما وجده في المجتمع الجزائري؟

- وما هي أهم اقتراحاته لاحتلال الجزائر من خلال نصوصه التي كتبها عنها؟

وهل ساندت فرنسا هذه الأفكار والمخططات؟ وما مدى نجاحها؟

المنهج المتبع

تقتضي الدراسة العلمية من كل باحث الالمام بالمنهج الذي يطبقه لدراسته وعليه اعتمدنا على:

1- المنهج التاريخي الوصفي الذي يعتمد على عرض الوقائع والأحداث التاريخية ووصفها. فمثال على ذلك قدمنا وصفا دقيقا لشخصية طوكفيل مع الوصف الخارجي للكتاب.

2- المنهج التحليلي والذي يعتمد على تحليل الأحداث التاريخية والوقائع وتحديد أبعادها وتفسيرها حسب كل مرحلة من المراحل، وقد وظفناه في الدراسات التي استعرضناها لفهم فكر طوكفيل.

خطة البحث

وللإحاطة بالموضوع وللإجابة عن الإشكالية بنينا دراستنا هذه على:

بدأنا بمدخل تمهيدي وجاء كتمهيد للموضوع وتطرقنا فيه للمحة وجيزة للموضوع المدروس من خلال ذكرنا أولا للاستعمار ثم تطرقنا للفكر الاستعماري.

- وجاء المبحث الأول بعنوان: التعريف بدو طوكفيل وكتابه وقد تم تقسيمه إلى أربع مطالب:

المطلب الأول جاء بعنوان: السيرة الذاتية لطوكفيل وصفنا فيه شخصيته وأفكاره، أما المطلب الثاني فقد جاء بأهم إنجازات طوكفيل، أما المطلب الثالث تحت عنوان طوكفيل والمسألة الجزائرية فبينا فيه رؤيته الاستعمارية لاحتلال الجزائر، أما المطلب الأخير فتم فيه تقديم وتعريف الكتاب حيث قدمنا دراسة ظاهرية وباطنية له.

- أما المبحث الثاني فقد جاء بعنوان دراسة محتوى الكتاب. حيث قسم إلى أربع مطالب، المطلب الأول تحت عنوان رسالة عن الجزائر وفيه تناولنا مقاومة الجزائريين والتحديات التي تمثلها في طريق تجسيد المشروع الفرنسي. أما المطلب الثاني ملاحظات عن رحلة إلى الجزائر وذكرنا فيه رؤية طوكفيل لطباع العرب والبربر من منظوره، وذكرنا المدن التي زارها، والمطلب الثالث جاء بعنوان الانشغال بالجزائر تناولنا فيه مسألة التوسع العسكري في الداخل الجزائري، والوسائل الكفيلة بتشجيع الاستيطان الأوروبي والمطلب الرابع عنوناه بتقرير عن الجزائر تحدثنا فيه عن التقرير الذي كتبه طوكفيل المتعلق بالقروض غير العادية المطلوبة للجزائر وذكرنا أهم ما جاء فيه.

- أما المبحث الثالث عنوناه ب " تقييم الكتاب "، الموسوم تحت مطلبين، أما المطلب الأول جاء تحت عنوان آراء مختلفة عن صاحب الكتاب ذكرنا أهم الآراء والأقوال حول المفكر السياسي طوكفيل، والمطلب الثاني: تقييم الكتاب والكاتب قدمنا فيه دراسة تقييمية للكاتب والكتاب.

عرض المصادر والمراجع

استعنا طبعا في هذه الدراسة بمجموعة من المصادر ذات علاقة مباشرة بالموضوع، "الكسيس دو طوكفيل "، كتابات طوكفيل عن الجزائر 1837 – 1847 م (طوكفيل بين الديمقراطية والاستبداد)، ترجمة الأستاذ علي زيكي، الكسيس دو طوكفيل نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، ترجمة إبراهيم صحرواي. شارل أندري جوليان، تاريخ الجزائر المعاصر الغزو وبدايات الاحتلال (1827 – 1871م). هارفي مانسيفليد، طوكفيل، تر: مصطفى محمد فؤاد، مراجعة هاني فتحي.

كما اعتمدنا على مؤلفات أبو قاسم سعد الله، والرسائل الجامعية مثل مذكرة دليلة بوجناح حول الفكر الاستعماري وتطوره وأيضا معاجم ومقالات التي تخص الموضوع، كمقال عنيبة عفاف، الرؤية الاستعمارية لألكسيس طوكفيل: الجزائر أنموذجا والمصباحي حسونة، ألكسيس دوطوكفيل والاستعمار الجزائر.

صعوبات الدراسة

لقد واجهتنا في دراستنا العديد من الصعوبات نذكر منها أن المصادر التي اعتمدنا عليها باللغة العربية لم تكن كافية لأننا لم نستطع الحصول على دراسات متخصصة في موضوع ألكسيس لأن أغلبها بالفرنسية مما وجدنا صعوبة اللغة وعدم تمكننا منها.

- صعوبة الحصول على النسخة الورقية للكتاب من خلال زيارتنا لبعض المكتبات ومعارض الكتب.
- قلة المصادر التي تتناول حياة طوكفيل وسيرته.
- صعوبة الدراسة النقدية للمؤرخ وكتابه.
- صعوبة ضبط العناوين نظرا لتداخل مواضيع الكتاب.
- ضيق الوقت.
- نقص في سلاسة اللغة لترجمة الكتاب من الفرنسية إلى العربية.

في الأخير لا يسعنا إلا أن نحمد الله تعالى الذي أتم علينا نعمه وووالى علينا مننه، وأعاننا فأكملنا هذه الدراسة المتواضعة، ونتمنى أن نكون قد وفقنا في الإلمام والإحاطة بالموضوع المدروس في معظم جوانبه، وأعطيناه ما يستحقه من الاهتمام والتوضيح، من غير ادعاء بالكمال وما الكمال إلا لله وحده، فإن أصابنا فمن الله، وإن أخطأنا فمن نفسنا والشيطان.

وأخير دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مدخل تمهيدي

مدخل تمهيدي

يعد الاستعمار ظاهرة لا تحدد لا بالزمان ولا بالمكان، حيث عرف تطورا عبر مراحل التاريخ من حيث الوسائل والأسباب والاشكال، ورغم كل الجهود المبذولة من طرف المنظمات الدولية الداعية لتحرير المستعمرات، غير أن آثاره بقيت واضحة في كل أنحاء العالم من خلال غزوه الفكري للثقافة وسيطرته على الاقتصاد، كما مس الجوانب السياسية والعسكرية والاجتماعية للشعوب المستعمرة، وهذا النوع من الدراسة يعتبر من المواضيع الهامة التي تحتاج لمزيد من الاهتمام والبحث، وتجذب إليها الباحثين والدارسين للفكر الاستعماري وتأثيره على المجتمعات الخاضعة لسلطته بتنوع أساليبه واختلافها، فكان نتيجة حتمية لحركة الكشوف الجغرافية والنهضة الفكرية والصناعية التي عرفتها أوروبا خلال القرنين 16و17م.

وموضوع الفكر الاستعماري وتداعياته لايزال من المواضيع التاريخية والعلمية والحساسة خاصة وأن دراستها تحتاج إلى مثابرة وجهد وموضوعية وهو يهتم بدراسة الفكر الفرنسي وأسس الفكر الاستعماري.

لكن هناك خلط بين الحركة الاستعمارية والفكر الاستعماري، فيرى بعض المؤرخون أن الفكر الاستعماري ظهر وتطور في أوضاع خاصة مرتبطة بالتطور والتغير الذي عرفته أوروبا، وللوصول إلى مصدر الفكر الاستعماري في أوروبا فإنه وجب علينا الرجوع للصراع الحضاري الذي دار بين العالمين الاسلامي والمسيحي،[1] فاتصال الغرب المسيحي بالشرق الاسلامي اعتداء مسلح طول قرنين كاملين من الزمن من نهاية القرن 11م إلى أواخر القرن 13م وهو اعتداء الحروب الصليبية.[2]

1-الثورة الفرنسية والفكر الاستعماري

الثورة الفرنسية هي وليدة الحروب التي عرفتها أوروبا منذ القرن 12م ومن أكبرها حروب فرنسا ضد النمسا منذ 1500 فقد كانت الدول الأوروبية تعيش صراعا متواصلا ولا تؤمن إحداها بالأخرى.[3]

1.1/مفهوم الثورة الفرنسية

تعد من بين الأحداث المؤثرة دلت على عهد جديد يعترف بالحرية والمساواة وكانت مصدر للأفكار ونظريات جديدة في الحكم والسياسية وقضت على اقتصاد برجوازي جديد. وقعت في فرنسا في عهد

---

[1] دليلة بوجناح، **الفكر الاستعماري وتطوره خلال القرن من خلال النظريات والممارسات**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 02، 2010-2011م، ص 64.

[2] محمد البهي، **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**، ط 04، مكتبة وهبة عابدين، د. س. ن، ص 07.

[3] إيريك هوبز، **عصر الثورة وأوروبا 1789-1848م**، تر: مصطفى الصباغ، دار الحمراء، بيروت، د. س. ن، ص 125.

الملك لويس السادس عشر[1] صيف عام 1789م، ولخصها "ألبير سوبول" بقوله: "كانت الثورة الفرنسية عاقبة تطور اقتصادي واجتماعي جعل من البرجوازية سيدة العالم".[2]

2.1/أسباب الثورة

- كان المجتمع الفرنسي يئن من الفروق بين طبقاته وأفراده، وكان هذا المجتمع متكون من مجموعة من الطبقات: طبقة النبلاء، طبقة رجال الدين، الطبق البرجوازية، الوسطى، طبقة الفلاحين، طبقة البروليتاريا.[3]

- شهدت أوروبا وفرنسا تحديدا حركة فكرية نشطة في القرن 18، حيث ظهر المذهب العقلي التجريبي والتفكير السياسي حول الحق الإلهي، وقد برزت في فرنسا مجموعة من الفلاسفة نادوا بتحرير الفرد، ومن أشهر المفكرين الفرنسيين الذين مارسوا دور كبير في تهيئة الفرنسيين للثورة على النظام الملكي المطلق نجد: فولتير، مونتسكيو، جان جاك روسو.

- تولي لويس السادس عشر الحكم في فرنسا تحت ظروف اقتصادية سيئة، في ظل خوضها حروب ضد بروسيا وغيرها من الدول الأوروبية فتكبدت جيوشها هزائم قللت من مكانة العرش الملكي - أل بربون - في نظر الفرنسيين.[4]

3.1/الفكر الاستعماري الفرنسي في الجزائر

إن فكرة احتلال الجزائر كانت تداعب مخيلة الكثير من رجال السياسة الفرنسيين، باعتبارهم كانوا في حاجة إلى امتداد جغرافي واقتصادي وثقافي ليجلبوا ما سموه بالحضارة لشعوب المتوحشة، ويمحون بذلك الوجود الحضاري للدولة العثمانية التي عرفت آنذاك فترة انحطاط، بالنظر إلى تخلي السلاطين العثمانيين عن معالم الفضيلة مما أتاح الفرصة لاستقواء المسيحية الصليبية وظهرت روح الانتقام بقيادة مجموعتين:

الأولى: رجال الدين، فكان يرافق الجيش الفرنسي جيشا من المبشرين والمسيحيين.

---

[1] لويس السادس عشر: 1754-1793، ملك فرنسا من 1774-1792، في عهده قامت الثورة الفرنسية، علقت عليه آمال انقاذ البلاد، لكنه كان ضعيفا، أعدم سنة 1793. للمزيد انظر: لويس عوض، الثورة الفرنسية، الهيئة المصرية للكتاب، 1992م، ص 278.

[2] ألبير سوبول، **تاريخ الثورة الفرنسية**، تر: جورج كوسي، ط 04، منشورات البحر المتوسط وعويدات للنشر، بيروت، 1979م، ص 70.

[3] شوقي عطا الجمل، عبد الله عبد الرزاق، **تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة**، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2000م، ص ص 83-87.

[4] نفسه، ص 85.

الثانية: السياسيين والمفكرين الذين كانوا ينظرون إلى ما وراء البحار.[1]

ويقول الكاتب الفرنسي "أوجين بوري " : كل خطوة نخطوها في حملتنا على الجزائر كنا نعثر فيها على شهادات تدل على الازدهار ...قد أعيد اكتشاف إفريقيا الرومانية ولم ينقصنا مستقبلا سوى احتلالها وتعميرها "، معنى هذا أن الفكر الفرنسي عند البداية وحتى عام 1842م ، كان يرى الاحتفاظ بالجزائر لا يكون ممكنا إلا باحتلال أراضيها الزراعية وتثبيت مستوطنين بها ومالم يتحقق هذا فإن وجود فرنسا في الجزائر يبقى مؤقتا وفي الواقع فإن الاستعمار الفرنسي في الجزائر حالة استثنائية يمكن وصفها بالمستعمرة الهجينة التي يمتزج فيها الاستغلال بالاستيطان.[2]

وقد أخذنا شخصية ألكسيس دو طوكفيل نموذجا لهذا الفكر.

[1] عدة بن داهة، **الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1962م**، ج 01، د. د. ن، الجزائر، 2008، ص ص 35-36.
[2] نفسه، ص ص 35-36.

المبحث الأول: التعريف بدو طوكفيل وكتابه

المطلب الأول: السيرة الذاتية لطوكفيل

المطلب الثاني: إنجازات طوكفيل

المطلب الثالث: طوكفيل والمسألة الجزائرية

المطلب الرابع: تقديم وتعريف الكتاب (بطاقة فنية)

المبحث الأول: التعريف دوطوكفيل وكتابه

المطلب الأول: السير الذاتية دوطوكفيل

1- نظرة على حياة دوطوكفيل

ولد ألكسيس دي طوكفيل بعد فترة قصيرة من قيام الثورة الفرنسية.[1] في أسرة أستقراطية. [2] أصلية من نورماندي.[3](من مواليد 29 يوليو 1805 وتوفي 16 أفريل 1859م) وكان مرتبطا بالنظام القديم في فرنسا بسبب أسرته وبالنظام الجديد من خلال رؤيته للحرية، وقد شهد دخول الديموقراطية إلى فرنسا وتنبأ بأنها ستنتشر في النهاية في جميع أنحاء العالم.

كان اسم أسرته في الأصل " كليرل " وقد حارب أحد أفراد تلك الأسرة مع " ويليام " الفاتح في معركة هاستنجز في عام 1066م وبالتدريج حازت الأسرة على اقطاعية طوكفيل في نورماندي، وفي عام 1661 أصبح اسم الأسرة طوكفيل ولا يزال قصر الأسرة موجود ويسكنه أحفاد شقيق ألكسي.

حافظ طوكفيل على لقبه وعاش في قصره المحبوب إلى قلبه لكن بالرغم من أنه قضى وقتا كبيرا وأنفق مالا كثيرا للمحافظة على القصر، لم يترك وريثا يرثه، فقد تزوج من امرأة إنجليزية من طبقة أقل من طبقته الاجتماعية أي ليست من طبقة النبلاء، أصر على الارتباط بها، بالرغم من اعتراضات بعض أفراد أسرته.[4]

---

[1] هي فترة مؤثرة من الاضطرابات الاجتماعية والسياسية في فرنسا عرفت عدة مراحل 1789 حتى 1799 وكانت لها تأثيرات عميقة على أوروبا والعالم الغربي عموما انتهت بسيطرة البرجوازية خلال التحالف مع نابليون وانتهت بتصدير الأزمة من خلال الاستعمار بالتوسع اللاحق بالإمبراطورية الفرنسية، لقد كانت فرنسا طول القرن 18 المنافس الاقتصادي الرئيسي لبريطانيا في الساحة الدولية، وتضاعفت تجارتها الخارجية أربع مرات في الفترة ما بين عام 1720-1780 وكان نظامها الكالونيالي في مناطق معينة مثل: جزر الهند الغربية، أكثر ديناميكية من النظام البريطاني إلا أن سوء أحوالها على المستوى الداخلي قد أبرز عدة مشاكل لعدم توفر المساواة الاجتماعية والحرية السياسية وعبء الضرائب العامة بالإضافة إلى تولي لويس السادس عشر الحكم في فرنسا.
ساءت الأوضاع الاقتصادية أكثر فأكثر فكانت هذه أهم الظروف التي ساهمت في قيام الثورة الفرنسية للمزيد انظر: ايرك هوبزياوم، **عصر الثورة**، تر: فايز الصايغ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2007، ص129.

[2] وهي شكل ملكي من اشكال الحكومة تعرف بالملكية حيث يكون للملك او الملكة سلطة مطلقة على كافة الاصعدة وليس هناك لادستور ولا ردع قانوني للحد من سطوة الملك.

[3] هي إحدى المناطق الإدارية في شمالي فرنسا، وهي مماثلة تقريبا لدوقية نورماندي التاريخية، تنقسم نورمانديإدارايا إلى خمسة أقاليم هي: كالفادوس، أور، المانش، أورن، السان البحرية تشكل ما يقرب من 5 من أراضي فرنسا، ويطلق على سكانها اسم النورمان.

[4] هارفي سي مانسيفيلد، **طوكفيل**، تر: مصطفى محمد فؤاد، مراجعة: هاني فتحي سليمان، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، القاهرة، 2016، ص16.

بعد انتهاء دراسته الأولية انصرف إلى دراسة القانون، وعين قاضيا متدربا في محكمة فرساي في عام 1827، هناك تعرف على صديقه غوستاف دي بومون القاضي المعاون بعد انضمامه إلى حركة الوسط اليساري وانتخب عضو البرلمان عام 1839، ثم أعيد انتخابه عام 1848 وفي عام 1849 عين وزيرا للخارجية وبقي في هذا المنصب عدة أشهر حتى اقال نابليون الوزارة.

2 -طوكفيل السياسي

رفض طوكفيل أن يحمل لقب " كونت " لكنه لم يرفض كل المزايا التي منح إياها بسبب انتسابه إلى أسرة أرستقراطية، ولقد استغلها لخدمة غاية ديمقراطية فيما أطلق عليه " العالم الجديد " القائم على الديمقراطية وحتى يقوم بهذا دخل في المعترك السياسي[1].

في النظام الأرستقراطي الذي كان قائما في النظام القديم في فرنسا، كان السبيل لشغل أي منصب سياسي هو من خلال التوارث الاقطاعي، فدخول السياسة في اعتقاد طوكفيل، كان بطبيعته أرستقراطيا لسبب بسيط، وهو أن الحكم يستوجب تحمل مسؤولية الأخرين، وهكذا يكون السياسي في مرتبة أعلى من الناس كانت أول تجربة لطوكفيل في السياسة في ظل الملكية البوربونية يرجع الفضل فيها لمكانة والده إير فيه الذي كان مسؤولا بالحكومة المحلية ومن خلال نصحه ونفوذه أصبح ألكسيس في عام 1827 قاضيا تحت الاختبار لا يتقاضى راتبا بعد ذلك كان عليه الترشح لمنصب رسمي في انتخابات كانت ديموقراطية بعض الشيء نرى هنا تطبيق لمبدأ من مبادئه: اضفاء الصبغة الديموقراطية على نظام سياسي هو بالأساس وفي الأصل أرستقراطي وتعلم السياسة بممارستها وهي الفضيلة التي وجدها في الديموقراطية الأمريكية وكانت تتفرد بها. [2]

تلاقى المبدآن لأن النظام السياسي يمكن تحويله إلى نظام ديموقراطي فقط إذا تنافس الديمقراطيين من خلال الانتخابات على المناصب التي كانت ستؤول دون ذلك إلى نبلاء الطبقة الأرستوقراطية دون أي مجهود.[3] ومن أعظم روى طوكفيل أن تلك الفضيلة الضرورية للديموقراطية لا يمكن أن تعتبر أمرا مسلما به في أي ديمقراطية وأنها تكون مهددة بالفعل فيها.

[1] سي مانسفيلد، مرجع سابق، ص16.
[2] نفسه، ص16.
[3] نفسه، ص17.

كان دخول الحياة السياسية في عهد " طوكفيل " مهمة صعبة فبعد الثورة الفرنسية عانى نظام الحكم في فرنسا من سلسلة من التقلبات الشديدة بدءا من الملكية البوربونية قبل عام 1789 أو ما يسمى ب " النظام القديم " إلى نظام جمهوري دستوري ثم لنظام جمهوري يعقوبي في عهد سمي بعهد الإرهاب.[1]

ثم الأحداث ثيرميدور التي كانت ضد اليعقوبين ثم الامبراطورية النابليونية ثم الملكية بوربونية ثانية ثم النظام الملكي البرجوازي للويس – فيليب ثم للجمهورية الثانية التي انقلب عليها وأطاح بها لويس نابليون الذي أسس إمبراطورية ثانية إن تلك الاضطرابات جعلت رغبة أي شخص يطمح إلى الدخول في مجال السياسة مخاطرة كما كانت مصدر قلق لأي مراقب للشأن الفرنسي وبالنسبة إلى كاتب ومفكر مثل طوكفيل، كانت تلك الأوضاع كفيلة بابتعاده عن السياسة من أجل الحصول على الراحة والسكينة في حياته الخاصة، لتوفر له فرصة للتفكير وإطلاق العنان لموهبته الكبيرة في الكتابة، لكن طوكفيل الذي شعر بالقلق على حال فرنسا طوال حياته، شارك بكل قوة في العمل السياسي حتى عندما كان يتعارض هذا مع رغبته في الكتابة على سبيل المثال في عام 1837ترك طوكفيل العمل في الجزء الثاني من كتابه الديمقراطية في أمريكا ورشح نفسه في مجلس النواب في نظام لويس – فيليب ورغم خسارته المرة الأولى مع أنه كان نبيلا يترشح في منطقته فقد أعاد الكرة في عام 1839، بشجاعة كبيرة وإصرار ديمقراطي ونجح ثم أعيد انتخابه مرتين أخريين وبعد ذلك سقوط نظام لويس – فيليب في عان 1848 انتخب طوكفيل في المجلس التأسيسي الذي كان منوطا به التأسيس للجمهورية الثانية والمعاونة في وضع دستورها، ثم انتخب في المجلس الجديد بمقتضى هذا الدستور وعمل وزير للشؤون الخارجية لمدة خمسة أشهر.

حتى أقال الرئيس الجديد لويس نابليون الوزارة " التي كان طوكفيل عضوا فيها وفي ديسمبر من عام 1851، ألغرنابليون النظام الجمهوري من خلال انقلاب وحينها ترك طوكفيل السياسة للأبد بعد أن استمر في ممارستها بقدر ما سمحت له مبادئه وتطلبت ذلك وكانت آخر تجربة سياسية له هي سجنه لمدة يومين على يد لويس نابليون لكونه نائبا معارضا.[2]

3 -أفكار دي طوكفيل وتنبؤاته السياسية

إن ما استدعى انتباه دي طوكفيل في الولايات المتحدة الأمريكية هو توفر المساواة في الشروط الاجتماعية فاعتبر هذه المساواة ظاهرة مولدة لكل الظواهر الجزئية الأخرى ونظرا إليها على أنها مفتاح لكل شيء، كما اعتبر هذه المساواة أنها تسير سيرا سريعا لفرض وجودها في أوروبا.

[1] سي مانسفليد، مرجع سابق، ص17

[2] نفسه، ص18.

1.3 -المساواة

شكلت المساواة مسألة فكرية اساسية شغلت الباحث، وقد اعتبر أن المساواة في الشروط هو واقع منجز، وهي ظاهرة عالمية مستمرة، لا تخضع للقوة البشرية فكل الأحداث كما كل الناس تخدم تطورها، من هنا قناعة دي طوكفيل بوجود قانون المساواة غير أن ديطوكفيل ميز بين حالتين من المساواة.

الأولى: السعي لتحقيق المساواة بين البشر، وقد أطلق على هذه الحالة تسمية قانون التساوي.

الثانية: شغف تحقيق المساواة الاجتماعية والسياسية

بالنسبة لقانون التساوي قد لاحظ دي طوكفيل المساواة تتمظهر منذ فجر التاريخ وفي كل المجالات حيث تميل الفروقات بين الأفراد إلى الاندثار " فالاكتشافات العظيمة أزالت امتيازات الأقوياء على الضعفاء وخفضت من شأن النبيل ورفعت من شأن العامي اجتماعيا، ولاحظ أيضا أن الثورة الديمقراطية تقوم على المساواة التي هي ليست حادثا عرضيا بل ظاهرة عالمية وعامة.

أما بالنسبة لشغف تحقيق المساواة الاجتماعية والسياسية فقد اعتبر الباحث أن لدى كل الناس شغف بالمساواة وهو شعور متوقد وأبدي لا يقهر فهو شغف تراكمي على اعتبار أنه كلما تحققت المساواة كلما أصبحت حاجة ملحة عند الناس.

2.3 - حتمية الثورة الديمقراطية

يعتقد دي طوكفيل أن الثورة الديمقراطية هي حتمية فكل العوامل والأحداث تجري لمصلحتها حتى أن الإدارة الإلهية شاءت هذه الثورة ولذلك ما من أحد يستطيع أن يقف بوجهها لإعاقتها فإعاقتها هي إعاقة لمشيئة الله.

وطالما أن الأمر كذلك ينبغي على الشعوب المسيحية في أوروبا واستجابة للمشيئة الإلهية الاستعداد لتقبل هذه الثورة وقيادتها قبل أن تفلت منها، ولكن كيف يتسنى للشعوب المسيحية أن تقود هذه الثورة وعبر أي مجتمع سياسي ؟ أعبر المجتمع الأرستقراطي أم غير المجتمع الديمقراطي؟

أ) المجتمع الديمقراطي

يرى دي طوكفيل أن المجتمع الديمقراطي قام على أنقاض المجتمع الأرستقراطي وإذا ما أحسن تكوينه وتوجيهه نحو العمل الهادئ يصبح هو المجتمع القادر على توفير السعادة والرفاهية للشعب، وذلك عبر تعميم المساواة وتنظيمها بواسطة القوانين التي يجب أن تكون مقبولة ومحبوبة من قبل الجميع خاصة

أنهم اشتركوا في صنعها، وهكذا يصبح بإمكان الجميع عبر الحقوق الفردية وواجباتها، والوجدان الديني، والتضامن الحر بين جميع الأفراد أن يقفوا بمواجهة أي مشروع استبدادي من قبل السلطة المتسلطة، وبذلك يشكل المجتمع الديمقراطي حالة اجتماعية أكثر تقدما من حالة المجتمع الأرستقراطي, ففيه ستكون الأغلبية في حالة اجتماعية أفضل وسيبدو الشعب فيه أكثر ميلا نحو الهدوء لأنه يعرف أنه على مايرام.

ب) المجتمع الأرستقراطي

يقر طوكفيل أن المجتمع الأرستقراطي ينطوي على بعض الحسنات فهو استطاع أن يوفر للشعب بعضا من حياة الترف والسعادة ووعي خاص بالمجتمع الذي يعيش فيه، لذلك لم تكن طاعة الشعب للسلطات الأرستقراطية مذلة له ،لأن هذه الطاعة كانت قائمة على قناعة منه بعدالة توزيع السلطات في المجتمع الأرستقراطي الذي يعيش فيه فظهر خضوعه بالتالي كشيء طبيعي ونتيجة من نتائج نظام الطبيعة الثابت ولكن بالرغم من هذه الحسنات فإن المجتمع الأرستقراطي هو مجتمع ميت لأنه مجتمع الأمس فهو ينحدر باستمرار منذ سبعة قرون لمصلحة الطبقة العامة من الشعب، وذلك بسبب اعتماده على مبدأ التفاوت وعدم المساواة بين البشر فعدد قليل من الناس يتمتع بحق الملكية والسلطة والترف في حين أن الأغلبية فقيرة وجاهلة.

هذه هي الصورة التي استوحاها دوطوكفيل من التجربة الديمقراطية في أمريكا ولم تكن متوفرة في أوروبا ففي تلك القارة تركت الديمقراطية ضحية للميول والغرائز دون البحث عن الوسائل التي من شأنها ان تصلح أخصاءها وتعالج امراضها وتبرز مزاياها الطبيعية والخبرة التي يمكن أن تعطيها فلم يبق سوى نوع من الاضطراب الفكري والروحي، فالكل في حالة صراع: رجال الدين يحاربون الحرية، وأشباه الحرية يحاربون الدين، والفقراء يكرهون الأغنياء إذا كان هذا واقع الديموقراطية في أوروبا فإن الصورة المثالية للديمقراطية تتجلى في التجربة الأمريكية فأمريكا هي البلد الوحيد الذي بلغت فيه الثورة الديمقراطية تطورها الكامل.

3.3- تنبؤاته السياسية

لقد كان دو طوكفيل مفكرا اجتماعيا سياسيا بكل ما للكلمة من معنى، درس المجتمع في أوجهه السياسية والاجتماعية، فتناولت تحليلاته تطور المجتمعات البشرية واستطاع بما تمته به من نظر ثاقب وعين المراتب الاجتماعي والسياسي، توقع خط تطور المجتمعات الغربية والتنبؤ بالانقسام الايديولوجي الذي حصل بعد الحرب العالمية الثانية، وهذا التوقع ليس مجرد حاسة ولكنه خلاصة مبنية على معطيات علمية كما أوردها في كتابه " الديموقراطية في أمريكا ".

4- طوكفيل الكاتب

إن الفشل كان أقصى ما كان يمكن أن يصل إليه طوكفيل باعتباره سياسيا وبقية حياته يجب النظر إليها باعتبارها أحداث في مسيرة كاتب في واقع الأمر، كانت تجربته السياسية الأكثر إثارة هي رصد تسجيل الثورتين اللتين حدثتا في فرنسا في أعقاب الثورة الفرنسية وذلك في عامي 1830-1848 وبصفته قاضيا في عام 1830 كان عليه أن يقرر ما إن كان سيدين بالولاء للملك الأورلياني الجديد [1]

متخليا عن الوريث الشرعي للملك من "آل بوربون " وهو ما فعله بالفعل وفي يناير من عام 1848 ألقى خطبة حذر فيها الحكومة من حدوث ثورة لكن بالرغم من كونه عضوا في مجلس النواب فإنه لم يكن بوسعه فعل شيء غير هذا التحذير وكان مرغما على مراقبة الجمهورية الثانية وهي تولد دون أن يستطيع ايقافها، وهو ما فعله بالرغم مما كان لديه من هواجس كثيرة حول مستقبلها الاجتماعي[2].

في عام 1850 وبينما كان يعاني من مرض السل الذي كان السبب في موته في النهاية ألف كتابه " ذكريات" الذي كان محوره هو تلك الثورة وكان نوعا من "أحلام اليقظة " بحسب قوله، وكان موجها بالأساس لأصدقائه وربما للنشر اللاحق (وهو الأمر الذي لم يحدث حتى عام 1893 في واقع الأمر) هنا جاءت اللحظة التي اقترب فيها من مركز قيادة الثورة الديمقراطية التي طالما انشغل بدراستها لكن كل ما كان يستطيع فعله هو المراقبة والكتابة وقد فعل هذا بنجاح كبير.

تلقى طوكفيل تعليمه المبكر على يد الأب ليسيور الذي كان معلم والده، وقد علمه ليسيور تعليما دينيا تقليديا، لكنه كان مدلل وأصبح الاثنان صديقين مقربين.

وعندما بلغ طوكفيل السادسة عشر أرسله والده الذي كان حينها حاكما على مبتز – إلى الجامعة لدراسة البلاغة والفلسفة، في ذلك الوقت، وكما حكى طوكوفيل لاحقا، ذهب إلى مكتبة والده ووجد هناك كتبا عن الفلسفة أحدثت زلزالا داخله مما سمح ل " موجه " شك عام " بأن تجتاح روحه التي كانت قبل ذلك عامرة بالإيمان وهذا الشك الذي استمر معه وعانى منه لبقية حياته، لم يضعف إيمانه بالرب فحسب وإنما أضعف أيضا إيمانه ب " العالم الفكري " الخاص بكل الحقائق التي حددها لتكون أساسا لمعتقداته وأفعاله [3]

[1] سي مانسفيلد، المرجع السابق، ص19.
[2] نفسه، ص20.
[3] نفسه.

تجاهل والد طوكفيل الزلزال الذي حدث في روح ابنه وأرسله لدراسة القانون في باريس وهو ما حدث من عام 1823 وحتى عام 1826 بعد ذلك بعامين حضر محاضرات كان يلقيها فرانسوا جيزو[1] الذي أصبح بعد ذلك رئيس وزراء فرنسا.

وكان يدون ملاحظات توضح أنه كان معجبا بأفكار جيزو عن تاريخ الإنسانية أو الحضارة وفي خطاب في ذلك الوقت وصف أعمال جيزو بأنها غنية بالأفكار والألفاظ المدهشة وكان جيزو وبنجامين كونستان[2] أهم مفكرين ليبراليين فرنسيين في أوائل القرن 19.

وكان طوكفيل عادة ما يقارن بهما، لكنهما كان يعتقدان بخلافه تماما أن الليبرالية يمكن أن تقيد الديموقراطية دون أن يتعين عليها التوافق معها، وأيا كان ما تعلمه طوكفيل من هذين المفكرين فإنه لم يقترب من تلك النقطة الجوهرية لكن كانت تلك المحاضرات فرصة لأن يتقابل على نحو مباشر مع أشهر أقطاب الفكر الليبيرالي في عصره.

لكن كان تعليم طوكفيل يعتمد إلى حد كبير على قراءاته الشخصية لأعمال مؤرخين عصره وكلاسيكيات الفلسفة السياسية [3] والكتاب المفضلون لديه كانوا فرنسيين وهم باسكال ومونتسكيو وروسو الذين قيل عنهم في عام 1836، إنهم هم " الرجال الثلاثة الذين أقضى معهم بعض الوقت كل يوم، لكن بالإضافة إلى الكتاب الذين ان يقرأ لهم كان لديه أصدقاء ديراسلهم كثيرا وكان يعلم نفسه بتعليمهم ومن بين هؤلاء الباحث الأدبي جيه جيه أمبير، والمنظر الاجتماعي أرثردي جونينو والاقتصادي الإنجليزي ناسو سنيور والسياسي بيير بول رويبد – كولار[4] وأصدقاؤه المقربين: فرانسيسك دي كورسيل[5] ومدام صوفي سويتشن وأدولف دي سيركون وأوجين ستوفل وصديقه منذ الطفولة لوي دي كيرجورلي.[6]

المطلب الثاني: أهم إنجازات طوكفيل

- كتاب **نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان**، تأليف ألكيس دوطوكفيل ترجمة وتقديم إبراهيم صحراوي، دار النشر ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون، 2008، عدد الصفحات 256 صفحة.

---

[1] سياسي ومؤرخ فرنسي من مواليد مدينة نيم في 4 أكتوبر 1787، وتوفي بمدينة saint-quen –le-pim في 12 سبتمبر 1874 من مؤلفاته كتاب التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوروبية.

[2] ولد في 25 أكتوبر 1767 توفي 8 ديسمبر 1830 كان ناشطا سياسيا سويسريا فرنسيا وكاتبا في السياسة والدين، وهو مؤلف رواية السيرة الذاتية النفسية الجزئية أدولفه، كان ليبيراليا كلاسيكيا متحمسا في أوائل القرن 19، وقد أثر على حركة ترينيو الليبرالية في إسبانيا، والحركة الليبرالية في البرتغال وحرب الاستقلال اليونانية وانتفاضة نوفمبر في بولندا والثورة البلجيكية والليبرالية في البرازيل والمكسيك.

[3] سي ما نسفيلد، مرجع سابق، ص21.

[4] ولد في 21 فيفري 1912 وتوفي في 30 جانفي 1994 روائي فرنسي اشتهر بفضل الروايتين الشهيرتين الذي قام بكتابتهما وهما الجسر فوق نهر كواي " وكوكب القردة ".

[5] من مواليد يوم 2 جوان 1802 في مارسيلي توفي في 3 سبتمبر 1892 كان سياسي فرنسي استقل في باريس.

[6] سي ما نسفيلد، مرجع سابق، ص21.

ومن أهم محتويات الكتاب نذكر: رسالة عن الجزائر، الاحتلال الكامل والاستعمار، السيطرة ووسائل فرضها، السيطرة وحكم الأهالي، بلاد القبائل المستقلة، التل، تنظيم حكومة الأهالي، المعارف العامة عند الأهالي، ماهي الاجراءات التي علينا اتخاذنا بخصوص الأراضي، العبودية في إفريقيا، الإدارة المدنية، حكومة الأوروبيين، بالإضافة إلى مركزية مدير الداخلية ومدير المالية ومدير الأشغال العمومية، مركز الحاكم العام، المجلس الإداري، الاستيطان في مقاطعتي قسنطينة ووهران. ..[1]

- كتاب النظام القديم والثورة تأليف ألكسيس دو طوكفيل ترجمة خليل كلفت، دار النشر، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى 2010.

نشر هذا العمل في عام 1856[2]، تناول طوكفيل النظام الملكي القديم في فرنسا، لكنه لم يصل لمرحلة الثورة الفرنسية، وبقي الكتاب غير مكتمل عندما توفي في عام 1859م درس طوكفيل النظام القديم تطلعا للثورة الفرنسية لأنه هو الذي أدى إلى قيامها، لقد تسبب هذا نظام القديم في إسقاط نفسه عبر عشرين جيلا بتأسيسه لنظام الإدارة العقلانية ففي هذا العمل ساهم طوكفيل في عرض معنى وأساليب الحكومة الكبيرة البيروقراطية وأشار إلى أنها ليست فقط صورة مخيفة للمستقبل، رسمها أعداء الديمقراطية، لكنها أيضا حقيقة تاريخية فعليه في فرنسا، فالنظام الملكي الفرنسي لم يكن ينوي إقامة نظام ديمقراطي لكنه مع ذلك قام بها بما تفعله الديمقراطية، فمن خلال القضاء التدريجي على النظام الإقطاعي الذي حكم فيه النبلاء المناطق التي كانت تحت سيطرتهم، ساوى الملوك الفرنسيين ورؤساء وزرائهم من أمثال الكاردينالين مازاران[3]وريشيلو[4] أولا بين كل المواطنين ثم أعادوا تنظيمهم في تسلسل هرمي جديد غير إقطاعي خاص بالدولة المركزية الحديثة.

التي يعيش في ظلها اليوم الفرنسيين وبدرجات متفاوتة كل الشعوب الديمقراطية. [5]

---

[1] للمزيد: انظر ألكسيس دوطوكفيل، **نصوص عن الجزائر إلى فلسفة الاحتلال والاستيطان**، تر: إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008م.

[2] سي مانسفيلد، مرجع سابق، ص86.

[3] ولد في عام 14 جويلية 1602 وتوفي 9مارس 1661 هو إيطالي وكان كاردينا لا دبلوماسيا وسياسيا خدم كرنيس لوراء فرنسا من 1642 وحتى وفاته، ولد في بلده بيشينا الإيطالية، بإقليم أبروتزو عام 1602 من أسرة متواضعة إذ أن والده كان موظفا في إدارة أملاك أسرة كولونا، وقد بدأ دراسته في روما لدى اليسوعيين وربطت بينه وبين أحد شبان أسرة كولونا صداقة جعلته يذهب معه إلى إسبانيا للالتحاق بجامعة القلعة.

[4] ولد في 9 سبتمبر 1585 وتوفي في 4 ديسمبر 1642م وهو رجل دولة ورجل دين ونبيل فرنسي، كان وزير الملك الفرنسي لويس الثالث عشر أصبح كاردينالا سنة 1622 ومن ثم أصبح سيد الوزراء لدى لويس الثالث عشر سنة 1622 حتى وفاته سنة 1622 وهو من خريجي السوربون ومؤسس أكاديمية اللغة الفرنسية

[5] مانسفيلد، مرجع سابق، ص86

يتألف الكتاب من ثلاثة أقسام: يتناول القسم الأول طبيعة الثورة ويدرس القسم الثاني بفصوله الاثني عشر الوقائع المادية لهذا النظام القديم على حين يبحث القسم الثالث مسألة لماذا حدثت الثورة في فرنسا دون غيرها من بلدان أوروبا الغربية.[1]

ويطرح طوكفيل أسئلة ملحة متكررة متواصلة تناولها في الفصل الأول من الكتاب بفصوله القصيرة الخمسة، وهذه الأسئلة هي " ماذا كان الموضوع الحقيقي للثورة؟ وماهي طبيعتها الخاصة في نهاية المطاف؟ ولماذا على وجه التحديد تم القيام بها؟ وماذا حققت؟ وهو يفند الأحكام المتناقضة عن الثورة مبينا أن موضوعها لم يكن تدمير السلطة الدينية بحكم طابعها الفكري العالمي وتبشيرها بمبادئ تنسجم مع روح العصر، أما ما حققته الثورة الفرنسية بالفعل فقد تمثل في كونها تكملة لعمر طويل سابق عليها وبدونها كان يمكن أن يتحقق هذا العمل ذاته بصورة تراكمية تدريجية طويلة لاحقة لما كان النظام القديم شرحا معمما لطبيعة النظام القديم الذي تمثلت الرسالة التاريخية للثورة في تحريره من القيود والأغلال الملكية والإقطاعية والقروسطية لكي يندفع كمجتمع رأسمالي إلى الأمام، ويرتكز هذا القسم الثاني والرئيسي من كتاب طوكفيل على المجتمع الفرنسي الأقدم في سبيل اكتشاف الاختلاف بين الأحداث في فرنسا والتطور العام لأوروبا، ويبحث أصول الثورة الفرنسية خاصة في أوروبا، وتشتمل الفصول الاثنى عشر للقسم الثاني على 6 فصول تركز على تحليل المركزة الإدارية باعتبارها السمة المميزة للنظام القديم، و4 فصول ترتكز على نتائج هذه الظاهرة على حالة المجتمع، على حين يبحث الفصل الأول الحقوق الاقطاعية في فرنسا في ذلك الزمن، ويبحث الفصل الأخير تدهور حالة الفلاحين خلال القرن 18 م كاشفا مدى التوق إلى الخروج من هذا البؤس إلى العدالة والمساواة والحرية وعلى هذا الأساس كانت فرنسا هي التي اندلعت فيها الثورة لأنها كانت قد بدأت فيها بالفعل، مختفية وراء اسم "النظام القديم " أي أن النظام القديم كان يمثل الثورة الأولى قبل الثورة، ويطبق طوكفيل تسمية النظام القديم على فترة الحكم المطلق أي المركزة الادارية ويعني هذا أن الصيغة الثورية كان لها واقع تاريخي على مدى فترة قصيرة نسبيا فقط، تمتد من عهد لويس الثالث عشر (ملك فرنسا:1610-1643) إلى عهد لويس السادس عشر (ملك فرنسا 1774-1791) أي على مدى أكثر من قرن.

كشف طوكفيل لأول مرة عن فكرة كتابه في أواخر عام 1850م في خطاب صديقه لوي دي كيرجورلي، وذكر أنها تتمثل في دراسة "الدراما الطويلة لثورة الفرنسية ".

وبعد ذلك بعامين[2]أشار إلى خطبته التي ألقاها في عام 1842م في الأكاديمية الفرنسية التي هاجم فيها حكم نابليون، معتبرا إياه "نموذجا مثاليا للاستبداد" في تاريخ العالم وشجب الأفكار المجردة التي قامت عليها الثورة.

[1] للمزيد انظر: كتاب أليكس دوطوكفيل، **النظام القديم والثورة**، ترجمة: خليل كلفت، ط1، المركز القومي للترجمة، 2010م
[2] مانسفيلد، مرجع سابق، ص 86

بدأ طوكفيل العمل في كتابه جانفي من عام 1853. وجد أن هناك حاجة للرجوع إلى السجلات الخاصة بالنظام القديم ،وقضى عاما كاملا في مدينة تور منكبا على السجلات الخاصة بكبار المسؤولين في إدارتها، وقد اختفت العبارات الجذابة والبارعة والمنمقة الواردة في كتاب وراءها عملية قراءة كتب وكتيبات وبحث في أرشيفات يعلوها التراب، كشف روبرت جانيت في كتابه الرائع "كشف النقاب عن طوكفيل" عن الأدلة التي اعتمد عليها الكتاب، وأشار إلى "الأسلوب المتكتم" لمؤلفه، لقد كان غرض طوكفيل من ملاحظاته واقتباساته المتعددة هو على نحو أساسي التوضيح، كما أنه لم يكن يذكر في الغالب المصادر التي اقتبسها منها. في نفس الوقت، كثيرا ما ذكر قراءه بالجهد الذي قام به ويمكن أن نقول إنه كان يفتخر به، كما لو أنه كان يتحداهم أن يقوموا بالبحث عن حقيقة الأمور بأنفسهم دون توجيه من أحد.[1]

بدأ طوكفيل بوصف عمله بأنه "دراسة" في نهاية هذا الكتاب، أشار لشبح الاستبداد الهادئ، لكنه عرضه من منظور الشعب، مفسرا سبب ترحيب الشعب بالسلطة الخانقة للحكومة الكبيرة. ووصف الحلول التي طبقها الأمريكيون لمواجهة هذا الاستبداد، ثم أعلن أنه يقبل الديموقراطية على نحو مسؤول، بالرغم من الأخطاء الموجودة بها، مدعيا أن لا بديل لها في أي عصر ديموقراطي، وأنها إلى جانب ذلك أكثر عدالة من النظام الأرستقراطي. تناول كتاب "النظام القديم والثورة" نفس هذا الاستبداد الذي سماه استبداد الديمقراطية لكن من منظور الملك والنبلاء. فقد أنتجا ديموقراطية لم يكن أي منها يسعى إليها، أي منهما يسعى إليها. وجلبت عليهما ثورة صاحبها عنق شديد.

لم يكن أحد يتوقعها. يتحسر هذا الكتاب بشدة على ضياع النظام الأرستقراطي الذي نتج عنه "أمة" مكونة من حشد غير متماسك من المواطنين الخائفين أو الغاضبين. وهو يفصل الطمع الاستراتيجي للملوك ولا مبالاة النبلاء، بينما يثني فقط على جوانب المجتمع الفرنسي التي تجاهل هذان الطرفان الاقتراب منها بتدخلهما الفاسد وغطرستها

لقد تم تصنيف كتاب "النظام القديم والثورة " على نحو صحيح باعتباره أحد كتب "التاريخ السياسي" لأنه جمع بين الحكم السياسي والتاريخ، مع تجنب استخدام أسلوب الجدل وعدم التزام الموضوعية العلمية.[2]

يتحدث الجزء الثالث والأخير من كتاب طوكفيل "النظام القديم والثورة عن حقائق" الأكثر خصوصية وحداثته التي حددت مكان وميلاد طابع "الثورة العظيمة" [3] كما أصبح يطلق عليها طوكفيل آنذاك، يمكن ان تكون الحقائق السبب المباشر، وليس الأساسي، الذي كان يمثل في السياسية الإدارية للنظام

[1] سي مانسفليد، مرجع سابق، ص 87.
[2] نفسه، ص87.
[3] نفسه، ص 96.

الملكي الفرنسي، إن تلك الحقائق اتضح أنها حقيقة واحدة وهي المفكرون الذين هيمنوا على السياسة الفرنسية في منتصف القرن 18م، إلى جانب تأثيرهم على النبلاء ورجال الدين والملك، إن دورهم المهم يثير مسألة دور الأفكار في السياسة بالنسبة إلى طوكفيل.

إن مسالة "الفعل أم الكتابة"، هي من أهم مسائل الحياة الشخصية لطوكفيل، والسبيل لحسمها يتمثل في إقرار ما إذا كانت الكتابة شكلا من أشكال الفعل، وما إذا كانت الأفكار المكتوبة من قبل كاتب يمكن أن يكون لها تأثير سياسي أم لا. وقد تناول تلك النقطة في عمله "النظام القديم والثورة".

كانت فرنسا على الدوام أكثر الأمم في أوروبا إنتاجا للمفكرين والأدباء، لكن قبل الثورة كان مفكروها لديهم اهتمام من نوع جديد بالسياسة، صحيح أنهم لم ينخرطوا في السياسة، كما فعل نظراؤهم في انجلترا. فهم لم تكن لديهم سلطة أو وظيفة عامة، لكنهم شغلوا أنفسهم باستمرار بالأمور السياسية، فقد كانوا دائما يفكرون على نحو مجرد ويناقشون مسائل مثل أصل المجتمعات والحقوق الأصلية للمواطنين في مقابل السلطة. والعلاقات الطبيعية في مقابل العلاقات المصطنعة بين البشر، ومشروعية العادات لقد اعتقد جميعهم أنه سيكون من المناسب استبدال قواعد بسيطة وأساسية، مأخوذة من العقل والقانون الطبيعي بالعادات التقليدية المعقدة السائدة في المجتمع في عصرهم. ولا توضح تلك الموضوعات المجردة والنتيجة المبسطة للغاية نقص الخبرة السياسية وحسب وإنما أيضا ازدراء لها، وهو الأمر الذي كان يبغضه طوكفيل.[1]

لم يسع طوكفيل لتفسير هذا السبب الحديث بالنظر إلى تاريخ الفلسفة السياسية الحديثة. حيث يمكن أن يجد أن البحث عن البساطة في السياسة كان قد بدأه هوبز ولوك إلى جانب ديكارت، بدلا من ذلك سأل عن السبب عن ظهور تلك الفكرة التي قال أنها لم تكن جديدة، وأنها ظهرت منذ ثلاثة آلاف عام.

في الجزء الثالث من كتاب "النظام القديم والثورة" أعطى طوكفيل لمحة عن علم السياسة الخاصة به، حينها عرض فرضيته الشهيرة التي تقول "إن أخطر لحظة بالنسبة إلى أي حكومة سيئة، تأتي عادة عندما تبدأ في إصلاح نفسها...فأي شعب يستحمل الظلم دون اعتراض عندما يبدو أنه لا مهرب منه، لكن عندما يري فرصة للتحرر، سيصبح عديم الصبر ويتحول للعنف.[2] فقط في عام 1780م، عندما كان هناك إصلاح يلوح في الأفق، ظهرت للثور "نظرية قابلية الإنسان المستمرة وغير المحدد لبلوغ الكمال..." جعلت تلك النظرية اللاعقلانية الخاصة بالتقدم والتي اعتبرت سببا للثورة في فرنسا، أثنى طوكفيل على الثوار لإيمانهم "المدهش" بقوة الإنسان وقابليته لبلوغ الكمال، فهم لديهم شغف بعظمة الإنسانية وإيمان

[1] سي مانسفيلد، مرجع سابق، ص97.
[2] نفسه، ص 100.

بفضيلتها، لكن على الرغم من أن قلوبهم كانت مخلصة فإن عقولهم كانت مرتبكة بسبب إسقاط القوانين الإلهية والانقلاب على القوانين المدنية، إن التقدم باتجاه القابلية لبلوغ الكمال يمكن أن يكون ملهم، لكنه لا ينتهي أبدا فالبشر بحاجة إلى علم سياسية ينظر للمجتمع باعتباره كيانا كليا يكون الإنسان فيه مكان إذا أرادوا أن يستمتعوا بالحرية.

- كتاب الديمقراطية في أمريكا بجزأيه الأول والثاني. تأليف ألكسيس دوطوكفيل ترجمة وتعليق أمين مرسى قنديل، تصدير محسن مهدي، عدد صفحات الكتاب 699[1].

وصف فيه طوكفيل الظروف التي تسمح له بتصنيف المجتمع الأمريكي في زمنه مجتمعا ديمقراطيا، قدم فيه تحليلا للتحولات الاجتماعية التي كانت تحدث تحت نظره وكان يرى أن الولايات المتحدة الأمريكية تقدم الصورة التي كان الأوروبيون يطمحون إليها، فكان هذا الكتاب دراسة سياسية واجتماعية للخصائص الأمريكية والفائدة التي يمكن لفرنسا أن تستخلصها من مؤسسات هذا البلد وقد لقي الكتاب نجاحا كبيرا استحق طوكفيل لأجله عضوية أكاديمية علوم الأخلاق السياسية وعضوية الأكاديمية الفرنسية فكان الكتاب دراسة لنظام السجون فيها بغية تطوير نظام فرنسا التي كانت تعيش الاضطرابات والثورات والعصيان.

لكن ألكسيس لم يعد بما طلب منه بل زاد عليه وهو كاتبه عن الديمقراطية وكان قد سافر هو وصديقه "بومون" في هذه الرحلة بعد أن سمحت لهم الحكومة بزيارة مدنها 18 شهرا لتعرف على نظام المجرمين في أمريكا وكتابة تقرير عنها، وقال عنها "ألكسيس" إن الرحلة في حد ذاتها تأخذك بعيدا عن الطبيعة الاجتماعية التي اعتمدت عنها فما تعلمته من هذه الدولة الشهيرة يميزك عن الآخرين لكنك في هذه الرحلة تتعلم ماهية الجمهورية الكبيرة[2].

تحدث طوكفيل عن الاستبداد في النصف الأول من الجزء الأول، حيث أثنى على نظم الحكم في أمريكا، لكنه لم يثن قط على الأغلبية ظهر مصطلح "استبداد الأغلبية" في الفصل الخاص بالجمعيات السياسية، ثم برز من خلال عنوان الفصل السابع الذي تناول "السلطة المطلقة للأغلبية" التي قال عنها ضمن هذا الفصل أنها استبداد الأغلبية، ثم قال في النهاية إنها شكل جديد من أشكال الاستبداد والطغيان، هذا هو الشبح الذي يتوارى وراء مبدأ سيادة الشعب، والذي كان وصولا إلى تلك النقطة قد استفاض في عرضه والثناء عليه[3].

[1] للمزيد انظر **كتاب ألكسيس دوطوكفيل الديمقراطية في أمريكا**، ترجمة وتعليق، أمين مرسى، تصدير، محسن مهدي

[2] دوطوكفيل، مصدر سابق، ص 7

[3] سي مانسفيلد، مرجع سابق، ص 46

إن السلطة المطلقة، بحسب دوطوكفيل، آمنة وهي في يد الرب، لأن حكمته وعدله مساويان لقدرته، لكنها عندما تكون في يد البشر الذين يعتريهم النقصان، يصبح الأمر مختلفا، فالسلطة المطلقة التي تكون في يد حاكم بشري تؤدي إلى الاستبداد وهذا لا يحدث بالضرورة ولكن يحتمل أن يحدث، ما لم يكن هناك ضمان لمنع حدوثه لم يرد طوكفيل للشعب الحاكم أن تكون له السيادة غير المنقوصة التي للرب كما تشير المبادئ الليبرالية لهوبز وسبينوزا ولوك.

يشكل الرأي العام الأغلبية فالسلطة التشريعية تمثل وتطيع الأغلبية، وهكذا الحال بالنسبة للسلطة التنفيذية، كما أن الجيش يمثل الأغلبية في قالب عسكري ويمثل نظام المحلفين الأغلبية، كما أوضح طوكفيل صراحة في عباراته، استبداد القوانين، لقد عرف الاستبداد بأنه الحكم على نحو يتعارض مع صالح المحكومين وهذا يختلف عن التعسف في ظل عدم وجود قوانين، لذا يمكن للقانون أن يكون أداة لاستبداد الأغلبية والحكم المتعسف يمكن استخدامه في صالحهم، الاستبداد يعني حكم الفرد إلا عندما تتصرف الأغلبية على نحو استبداد، أي إنها تفكر وتتحرك كما لو كانت رجلا واحدا، في أمريكا، الأغلبية تداهنها حاشيتها وهي تعيش في حالة دائمة من الإعجاب بذاتها تماما كما كان الحال بالنسبة إلى لويس الرابع عشر.[1]

إن استبداد الأغلبية يتسم بطابع جديد في الديمقراطية، ففي ظل النظام الملكي (أو الحكم المطلق لشخص واحد) سيضرب الاستبداد جسم الضحية من أجل أن يصل لروحه، أما استبداد الديمقراطية فإنه يترك الجسم ويتجه مباشرة للروح.

إن استبداد الديمقراطية وذلك بحسب تعبير طوكفيل في الجزء الثاني من كتابه هذا عبارة عن استبداد هادئ لا يقوم بالتعذيب والإعدام، وإنما يسعى للهيمنة الأخلاقية والفكرية أعطى طوكفيل مثالين للاستبداد الأغلبية في بلاتيمور، قتل صحفيان عارضا حرب عام 1812م على يد حشد من مؤيد، الحرب وفي فيلادلفيا، تعرض العبيد المحررون من السود لحالة من التخويف الشديد، الأمر الذي أدى إلى إحجامهم عن ممارسة حقهم الانتخابي، والمثال الذي يدور حول التمييز العنصري تناول طوكفيل باستفاضة في فصل مهم عن الأجناس الثلاثة الموجودة في أمريكا في تلك الفترة وهم: البيض، السود والهنود[2].

ذلك الفصل وهو الأخير في الجزء الأول من كتاب "ديمقراطية في أمريكا" والذي يعد خاتمة تناوله مبدأ سيادة الشعب هو الأطول إلى حد كبير والموضوعات المغطاة فيه تتعلق بأمريكا على وجه الخصوص

[1] سي مانسفيلد، مرجع سابق، ص 47
[2] نفسه، ص 47

بحسب قول طوكفيل وهي تتناول الأجناس الثلاثة ومستقبل أمريكا، لكن الهدف الأعمق لطوكفيل من هذا الفصل هو الكشف عن طبيعة استبداد الأغلبية وما يمكن فعله لمنع هذا الاستبداد وذلك عن طريق تحليله للإحساس بالفخر والحرية.

مباشرة بعد أن عرض طوكفيل المفهوم الاستبداد الأغلبية، تحدث عن "السلطة التي تمارسها الأغلبية على الفكر"، وقال على نحو مباشر وحاسم " لا أعرف أي دولة تسود فيها بوجه عام استقلالية فكر وحرية تعبير أصيلة أقل من أمريكا، ليست القضية أن المعارض يخشى التعرض للاضطهاد أو الإعدام حرقا على خازوق. وإنما القضية أنه "لن يستمتع أحد لما يقوله وسيصبح منبوذا وفي النهاية سيتوقف عن المعارضة، إن هذا عنف فكري يؤدي إلى توقف العقول عن التفكير، بل حتى إلى توقف الكتاب عن التفكير في نشر آراء معارضة لرأي الأغلبية، وهو أمر أكثر سوء مما كان يجري في محاكم التفتيش التي كانت مهمتها قطع المهرطقين، ذكر طوكفيل دليلا على ذلك الحقيقة مفادها " أن أمريكا حتى الآن ليس لديها كتاب عظام".

ترجم كتاب طوكفيل ونشر في أمريكا بعد فترة قصيرة جدا من ظهوره في فرنسا ة يبدو أن هذا تم بغض النظر عن رأي الأغلبية. لكنه في مواضع كثيرة من الكتاب أظهر نفسه وكأنه يخشى أن ينظر إليه باعتباره معاديا لأمريكا أو الديمقراطية.

وخاصة بداية الجزء الثاني، حيث أعلن عدم استعداده لمداهنة الأحزاب الكبيرة، أو الفصائل الصغيرة التي كانت موجودة في عصره.[1]

في 22 مايو 1831 وصل إلى ميناء نيويورك قادما من فرنسا على ظهر سفينة شراعية القاضي الفرنسي. ألكسيس دوطوكفيل، مؤلف هذا الكتاب بدراسة الإصلاحات الجديدة التي أدخلتها أمريكا على نظم السجون والإصلاحيات، تمهيد الإصلاح سجون فرنسا التي عمت الشكوى منها، فقضى عشرة شهور متنقلا بين الولايات الأمريكية قطع خلالها نحو سبعين ألف ميل، فلما عاد إلى فرنسا عكف على كتابه، مشاهداته، وملاحظاته عن كافة نواحي الحياة السياسية والاجتماعية في أمريكا، حتى فرغ منها فأصدرها في جزأين: الأول في جانفي 1835 والثاني في عام 1840.

وما إن ظهر الكتاب حتى استقبله القراء والنقاد في كل مكان أحسن استقبال ومنحت أكاديمية العلوم الاجتماعية والسياسية في فرنسا أهم جوائزها لمؤلفه "طوكفيل" وعلى أثر ذلك انتخب عضوا في مجلس الأمة، ثم عضوا في الجمعية التأسيسية ولجنة وضع الدستور ن فرئيسا للجمعية التشريعية، فوزيرا

[1] سي مانسفيلد، مرجع سابق، ص 51

للخارجية عام 1849م، وأشاد بالكتاب كبار ورجال الفكر والسياسة والأدب في فرنسا وأوروبا بأسرها، أمثال شاتوبريان... ولا مرتين وجون ستيوارت ميل، وترجم الكتاب إلى كل اللغات الحية، وكتب عنه نحو 150 بحثا منها ما كتبه الفيلسوف الإنجليزي "هارولد لاسكى".

كما يتناول الجزء الأول من الكتاب معالم أمريكا ونظام الحكم في ولايتها وأجناسها الثلاثة (البيض والزنوج والهنود الحمر) وعلاقاتهم بعضهم ببعض ونظام الحكم المحلي في القرى والمدن...

أما الجزء الثاني فيتناول دراسة النواحي الاجتماعية والاقتصادية والأدبية ورغم مضي السنوات الطوال منذ وضع الكتاب فإن القارئ له يشعر كأنه خرج توا من المطابع إذ عالج فيه المؤلف كثيرا من المشكلات التي مازالت تمس الناس في الوقت الحاضر.

من أهم صداقاته كانت صداقته مع جوستاف دي بومون، فقد أرسل طوكفيل لجوستاف ثلاثة مجلدات من الخطابات، واصطحبه في رحلته لأمريكا التي استمرت لمدة تسعة أشهر فيما بين عامي 1831 و1832م. قبل تأليفه لكتاب الديمقراطية في أمريكا، وقد درس طوكفيل وبومون معا القانون وعملا قاضيين في نفس المحكمة، وحضرا المحاضرات التي كان يلقيها جيزو قبل رحلتهما الشهيرة، وسافرا لأمريكا ليتعرفا على سمات الجمهورية العظيمة، وذلك على حد قول طوكفيل في أحد خطاباته ،و هما يحملان فكرة غير واضحة المعالم عن القيام بمشروع مشترك، إن خطتهما الأكثر تحديدا كانت تأليف كتاب عن إصلاح نظام السجون في أمريكا، وبالرغم من أن هذا لم يكن سوى ذريعة للسفر إلى هناك فإنهما ألفا كتاب عن هذا الموضوع بعنوان "عن نظام العقوبات في الو.م.أ وتطبيقه في فرنسا" بعد عام من عودتهما إلى أمريكا، أكدا فيه ضرورة الإصلاح وعلى نحو مميز لليبرالية طوكفيل هاجما الآمال المبالغ فيها لدعاة الإصلاح.[1]

طاف طوكفيل وبومون معظم أنحاء أمريكا بحدودها المعروفة حينذاك وبدا الاثنان جولتهما من نيويورك، ثم سافرا باتجاه الشمال عبر بافلو، مرورا بالبحيرات العظمة، وصولا إلى ميشيجان وويسكونسن حيث توجد الحدود التي تفصل بين الطبيعة والحضارة وبينما كان طوكفيل هناك يكتب على ظهر سفينة بخارية كتب تأملات موجزة ولكن رائعة عن هدوء الطبيعة وحديث الحضارة المختلف، مقارنا بين الأمريكيين من جهة والإنجليز والفرنسيين من جهة أخرى، معتبرا الهنود بشرا غير متحضرين ومعاديين للحضارة وقد كان نتاج ذلك تلك التأملات كتابا بعنوان "أسبوعان في البرية" (ألفه في عام 1831م حين كان في السادسة والعشرين من عمره) وكان يسعى لنشره، وكنه لم ينشر حتى وفاته.

[1] سي مانسفيلد، مرجع سابق، ص ص21 22

كتب طوكفيل وبومون يومياتها أثناء الرحلة وبالرغم من أن يوميات طوكفيل نشرت في كتاب بعنوان " رحلة إلى أمريكا " فقد حوى الكتاب ملاحظات غير ذات صلة مخصصة لأعماله اللاحقة ولم يكن منظما مثل كتاب "أسبوعان في البرية" وفي مرحلة ما أثناء الرحلة، أصبح المشروع المشترك بين طوكفيل وبومون لإنتاج كتاب عن الجمهورية العظيمة في أمريكا مشروعا خاصا بطوكفيل وحده، وبعد أن تجاوز طوكفيل وبومون الحدود الأمريكية التي كان يعتبرانها مؤقتة فقط وأنها لن تستقر حتى تصل إلى ساحل المحيط الهادئ، ذهب إلى كندا ثم جنوب إلى بوسطن وفيلاد لفيا وبلاتيمور ثم غرب إلى بيتسيرج ثم جنوبا إلى ناشفيل وممغميس ونيو أورليانز، ثم سافرا عبر ولاية جورجيا ولايتي نورث وساوث كارولينا إلى واشنطن وأخير إلى نيويورك التي عاد منها إلى فرنسا.

لم تكن أمريكا هي الوجهة الوحيدة التي قصدها طوكفيل فقد سافر إلى صقلية في عام 1827، وهي الرحلة التي نتج عنها كتابه الأول وبعد رحلته لأمريكا سافر إلى انجلترا في عام 1833 ثم إلى انجلترا وإيرلندا في عام 1835 متلهفا إلى رصد تطور الديمقراطية في أكثر الدول الليبيرالية في أوروبا ومهتما بالإدارة الحكومية اللامركزية التي وجدها في أمريكا، وراغبا في دراسة الفارق بين الأرستقراطية الانجليزية والأرستقراطية الفرنسية.[1]

وقد سافر أيضا إلى سويسرا في عام 1826 وإلى الجزائر في عامي 1841 و1846 وقد كتب تقارير عن الفقر (تقرير عن الإملاق 1835) والعبودية والمستعمرات.

اختلف عمل طوكفيل " ذكريات " عن أعماله السابقة اختلافا بينا وقد تم تأليفه في عامي 1850 و1851 في البداية، قال إنه أبعد مؤقتا عن مسرح الشؤون السياسية، وإنه لم يعد قادرا على الاستمرار في أي دراسة بسبب متاعب صحية في أكتوبر من عام 1839 أجبر على الاستقالة من منصبه باعتباره وزيرا للشؤون الخارجية تقيأ دما للمرة الأولى، وكانت هذه علامة على المرض الذي أودى بحياته بعد ذلك بتسعة أعوام، لقد أصبح وحيدا في تلك الفترة، وقد قرر استعراض أحداث ثورة عام 1848 وتصوير الأشخاص الذين رآهم يشاركون فيها لم يكن من المفترض أن يكون هذا العمل أدبيا مثل أعماله الأخرى لم يعرض طوكفيل في واقع الأمر عمله هذا إلا على بعض الأصدقاء ولم ينشر في حياته لكنه نشر فقط في عام 1893 من خلال الإذن بذلك الذي نص عليه في وصيته.

قال طوكفيل إن هذا العمل سيكون بمنزلة " مرآة " يرى من خلالها معاصريه ونفسه ليس باعتباره لوحة مقدسة للناس يمكنهم للناس يمكنهم الاطلاع عليها فقد كان هدفه الوحيد هو الحصول على متعة فردية لنفسه، والتأمل المنفرد للوحة الحقيقة للمجتمع.

[1] سي مانسفيلد، مرجع سابق، ص ص22، 23.

يعد عمل طوكفيل " ذكريات في واقع الأمر لوحة لكن للجيل التالي قسمته المميزة تتمثل في تصويره الرائع للعديد من الشخصيات على حسب قول هارفي سي مانسفيلد وبدأ من التحليل اللاذع للملك لويس – فيليب يستعرض القارئ لوحات بارزة وساخرة واحدة بعد الأخرى للشخصيات ليس باعتبارهم متحكمين في سير الأحداث وإنما باعتبارهم ضحية لأخطائهم ولم يسلم من العرض أسرته (أخت زوجته) ولا صديقه) ولا صديقه (جيه جيه أمبير) وقرب نهاية الكتاب انتقد بشدة الرئيس لويس نابليون معتبرا إياه متآمرا قديما ومحبا شديدا للمتع السهلة.

ففي هذا العمل كشف طوكفيل عن القيود المفروضة على السياسة واهمية الحرية السياسية.[1]

المطلب الثالث: طوكفيل والمسألة الجزائرية

لم يترك طوكفيل مؤلفا عن الجزائر مثلما فعل عن أمريكا على الرغم من اهتمامه الكبير بموضوع الجزائر حينما كان يخوض تشريعات 1837 كتب رسالتين عن الجزائر أظهر فيها مقدرته كرجل دولة، وبعد سنوات انتقل هو وزميله بومو إلى الجزائر ماي جوان 1841 كان من المعارضين لابرام معاهدة التافنة مع الأمير عبد القادر وكان يعتقدان أن القبائل سيميلون مع الوقت إلى الحضارة الفرنسية، وظن كذلك أن الشعب الجزائري والفرنسي سيصبحان شعبا واحدا، واعتبر أن الإسلام هو العائق الوحيد الذي يحول دون ذلك ولقد أيد طوكفيل مشروع استعمار الجزائر وحاول البحث عن السبل للاحتفاظ بالجزائر.

وبعد عودته من الجزائر كتب مذكرة هامة عن الجزائر، تلخص قراءاته وانطباعاته وحينما أصبح نائبا ما بين 1842 – 1849 اشترك في مختلف اللجان التي اهتمت بالوضعية الجزائرية وقدم خطابا متميزا سنة 1846 وحرر عدة تقارير سنة 1847 ما بين أكتوبر وديسمبر 1846 قام بزيارة ثانية إلى الجزائر هذا السفر عمق معلومات طوكفيل عن الجزائر وبعد عودته غلى فرنسا في فيفري 1847 ترأس اللجنة المكلفة والتي أصدرت مشروعي قانونين واحد متعلق بالقروض الاستثنائية المخصصة للجزائر والثاني بإنشاء المستوطنات الفلاحية تبعا لمشروع جديد اقترحه بيجو.

إن موقف طوكفيل من مسألة احتلال الجزائر وكيفية التعامل مع هذه المسألة يمكننا من الحكم عليه على قيمة الفكرية وأخذ فكرة مكتملة عن فكره السياسي، حينها سافر طوكفيل إلى أمريكا لا حظ مباشرة معاناة العبيد السود، وإن العضو المنتخب في الغرفة الوطنية كان ضمن لجان التحقيق لمناقشة مشكلة العبودية والتي حضرت مشروعا لإبطالها في المستعمرات الفرنسية القديمة مثل الأنتيل وفي مداخلاته احتج بالمبادئ الإنسانية المقرونة بفلسفة التنوير واعتبر العبودية مرفوضة باسم الحق الطبيعي.

[1] سي مانسفليد، مرجع سابق، ص ص101، 105.

كما أن طوكفيل يعترف بالمساواة بين الناس على اختلاف انتماءاتهم، وهذا ما تعكسه النصوص التي كتبها في هذا المجال لقد استوحى أفكاره عن الإنسان والحرية من المسيحية التي اعتبرها دين الإنسان الحر.

إن المفارقة بين المبادئ التي كان يحملها طوكفيل والتي انعكست في مؤلفه " الديمقراطية في أمريكا " من رفضه لمبدأ العبودية، وما بين موقفه من احتلال الجزائر، قد تبررها المصلحة الوطنية الضيقة أو أثر السياسة في الأفكار والأخلاق.

وعلى الرغم من أن طوكفيل يقر بأن وضعية الجزائريين المسلمين ازدادت سوءا بالوجود الفرنسي لكنه بالمقابل لا يعارض فكرة الاحتلال بل حاول البحث عن الطرق التي تستطيع بها فرنسا الاحتفاظ بالجزائر وكان من أشد المتحمسين لفكرة الاستيطان والداعين له، والمدافعين كذلك عن المستوطنين وذلك بتوفير الشروط اللازمة والمشجعة لهم على الاستقرار بالجزائر.

إن احتفاظ فرنسا بالجزائر يعتبر من قبل المصلحة الوطنية العليا وإن أهمية المستعمرات في تصوره لا يعود للفائدة الاقتصادية التي تجنى منها وإنما للأهمية الاستراتيجية لتلك المستعمرات وكان من المؤمنين باستعمال القوة لإخضاع الجزائريين حيث اعتبر الحرب هي سياسة القوة واعتبر الحرب كذلك الوسيلة المحققة لأحلام فرنسا في التوسع رد أعتقد أن جميع الوسائل لمضايقة القبائل لابد ممارستها واستعمالها أستثني فقط التي تنبذها الإنسانية وحق الأمم.

لم يكن طوكفيل مؤيدا الفكرة الاستعمار فحسب ن بل كان مرشدا له وكان من مناصري الاحتلال الجزئي، المقرون باستيطان مكثف وبمدى صلاحية المناطق للاستغلال وكان خبيرا بالشؤون الجزائرية لذلك كان يرى أن فرنسا في الجزائر لا تواجه جيشا، وإنما شعبا بأسره، لذلك عليها أن تتعرف عليه، على مواطن قوته وضعفه وتشكيلاته القبلية.

وكان يرى في الحركة الدائمة للقبائل الصعوبة التي تعرقل مشروع الاستعمار وإن صعوبة استعمال المدافع لانعدام طرق المواصلات يجعل فرنسا مضطرة لاستعمال الحيوانات بدلها.

كان طوكفيل يرى أن الجزائر تشكل قلقا كبيرا ويرى البحر الأبيض المتوسط أنه بحر سياسي وهو الفضاء الاستراتيجي الذي تستطيع به فرنسا تعويض ضعفها داخل القارة الأوروبية لذلك كان من أشد مناصري الاستيطان الفرنسي بالجزائر لإلحاقها بفرنسا وكان من أشد المتحمسين لتحسين ظروف المستوطنين الأمنية والاقتصادية والاجتماعية لدعم الاستعمار وتحفيزهم على البقاء في الجزائر.

ولم يكن يرى أن فرنسا سوف تتخلى عن الجزائر " لا أعتقد أن فرنسا تفكر بجدية في مغادرة الجزائر، التخلي عنها في نظر العالم يعني إعلان انهزامها كل شعب يتخلى بسهولة عما يملك ويتراجع بهدوء إلى حدوده القديمة يعلن أن أحسن فترات تاريخية قد انتهت إنه يدخل بوضوح في مرحلة الانحطاط"، هذا ما أعلنه طوكفيل، وهو يعكس بوضوح النظرة المتعصبة لوطنه وفي ذات الوقت النظرة البرغماتية البعيدة عن الكثير من القيم التي رفعتها ونادى بها، ولكن ليس في الجزائر.

إن المصلحة العليا في العالم اليوم تكمن في السيطرة على الجزائر بدون عنف وأن هذه المصلحة العظيمة في حد ذاتها، وكذلك علاقتها مع بقية المصالح الاخرى، يتعلق الأمر هما بمسألة تفوقنا على الصعيد الأوروبي وبتحقيق توازن ميزانيتها وبتسيير سبل المعيشة من مجتمعنا وبالحفاظ على شرفنا الوطني هذه العبارات لنائب فرنسي كان مشهورا آنذاك أيد سنة 1828 فكرة الغزو العسكري لإيالة الجزائر وبعد بضع سنين أيد أيضا الاستعمار الجزئي والسيطرة الكلية عليه.[1]

فقد كان مهتما بالجزائر لسببين:

الجزائر في 30 سنة الأخيرة من حياته كانت شأن فرنسا وكانت عملية الاحتلال والاستيطان جارية على قدم وساق وكان لدى طوكفيل دور في توجيهها والتأثير عليها.

أما السبب الثاني هو نتيجة منطقية للأول هو أن طوكفيل كان رجلا سياسيا انتخب عضوا في الجمعية الوطنية الفرنسية (1849/1839) حيث أصبح في هذه نائبا لرئيسها ثم وزير الخارجية فرنسا لينسحب من الحياة السياسية سنة 1851 لعدم موافقته على انقلاب رئيس الجمهورية آنذاك لويس نابليون[2]

فقد بين المؤرخ الفرنسي للاستعمار "أوليفي لوكرانميزون " كيف استعمل طوكفيل تعبير الابادة ليصف ما حدث استعمار واحتلال الجزائر.

فالرجل اعتبر استعمار الجزائر فرصة ذهبية لفرنسا هناك مستعمرة نموذجية تحقق لبلده الامتداد والنفوذ الضروريين لقوة فرنسا المتعاطفة، ففكرة احتلال الجزائر كانت تداعب مخيلة الكثيرين من رجال السياسة والفكر الفرنسيين باعتبارهم في حاجة إلى امتداد جغرافي واقتصادي وثقافي ليجلبوا ما سموه بالحضارة إلى الشعوب فقد كانت هناك جماعتين تنازعهما رغبة الانتقام المسيحي التي أرفقت جيش فرنسا بجيش آخر من القسيسين والمبشرين المسيحيين والمجموعة الثانية السياسيين والمفكرين الفرنسيين الذين

[1] لوكور غرنميزون أوليفي، **الجمهورية الامبراطورية في سياسة الدولة العنصرية**، تر: مسعود، دار القصبة، ط. خ، الجزائر، 2009م، ص5

[2] دوطوكفيل، **نصوص عن الجزائر في فلسفة الاستيطان والاحتلال**، مصدر سابق، ص87.

كانوا ينظرون إلى ما وراء البحر والأطماع تحدوهم في ضم أرض ودولة أزعجتهم سيطرتها البحرية على البحر الأبيض المتوسط فالنظرة الاستعلامية التي قادت رجال مثل "طوكفيل "إلى تأليف رسائل حول كيفية مساعدة الدولة الفرنسية على إحكام قبضتها على الجزائر.

إن طوكفيل قبل كل شيء هو مؤلف الكتاب الذي عنوانه عمل يتعلق بالجزائر ومن الواضح أنه أخرجه خصيصا لدعم نظريات صديقه لاموريسير، فهو إذن من أنصار الحرب ومن أنصار الغزو باعتباره وسيلة من أنصار الحرب ومن أنصار الغزو باعتباره وسيلة لا مناص منها: إذن الفكرة القائلة بالاستحواذ على إفريقيا وبالاحتفاظ بإفريقيا بفضل المساعدة والدعم من طرف السكان الأهالي حلم يراود ذوي القلوب النبيلة ولكنها مجرد ترهات واهية وقال أيضا ليس ثمة من وسيلة أخرى غير الحرب [1]

فقد كان طوكفيل تفسيره ونقده الخاص فقد زار الجزائر على الأقل مرتين سنة (1841-1846) ولكن اهتمامه كان سنة 1833 وكتب عنها التقارير والمذكرات وشارك في إحدى اللجان البرلمانية التي درست أحوالها وكان مشروع إقامة " رد مينيون " بالجزائر لكنه لم ينجح فيه وقد ايد الاستعمار وتوزيع الأراضي ومواصلة الحرب في الجزائر بل أيد حملات بيجو العسكرية ومجزرة غار الظهرة الشهيرة 1845 والقضاء على مقاومة الأمير وذلك تحت غطاء نشر الحضارة الأوروبية والمسيحية وتحرير العبيد والتوسع الفرنسي القومي باسم الفكر الليبرالي ولكنه نادى بالأخذ بيد الجزائر بين البدائيين ليكونوا كالفرنسيين [2]

غير أن " سانت ارنوا " يقول:" لئن لمسنا لدى طوكفيل بعض الحيرة فمرد ذلك إلى تفكيره السليم الذي يدفعه إلى التفوق من المستقبل لا ينبغي تجاوز الهمجية جدا يدفع بمن بقي من السكان إلى إظهار عداوة أبدية ضد التواجد الفرنسي لأن طوكفيل من جملة الناس المعادين لسياسة الإبادة التي قد تؤدي إلى تكرار الغلطة المرتكبة في حق الهنود الحمر.

فينبغي حسب رأيه تقليص عدد العرب فإذا تقلص عددهم فإنهم سيدركون أن مصلحتهم تكمن في الاستفادة بفعل جاذبية أسواقنا جاذبية أسواق المستعمرة تلك هي الصفة السحرية التي تم التواصل إليها فبفضلنا نفتح جميع أبواب العصرنة متى وكيف يستحق ذلك؟ ذلك موضوع أم لم يشغل بال " طوكفيل " فالمهم في رأيه هو التمكن الآن من تجاوز مرحلة الهمجية التي لا مناص منها [3]

---

[1] فرنسوا مسييرو، **سانت آرنو والشرف الضائع**، ترجمة أحمد بكلي، مراجعة مسعود حاج مسعود، دار القصبة للنشر الجزائر 2005، ص180.

[2] سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1964)** ج6، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص282.

[3] مسييرو، مرجع سابق، ص180.

وبهذا فنبدأ أو بالكشف عن القناع عن المهمة الحضارية لفرنسا في الجزائر عندما تكون قد تعرفنا على اللغة والأحكام المسبقة وتقاليد العرب وبعدما قد نكون قد ورثنا احترام الذين يحملونه دائما، نحو حكومة مستقرة سيكون متاح لنا أن تعود شيئا فشيئا إلى عادتنا وفرنسة البلاد من حولنا هذا ما كتبه ألكسيس دو طوكفيل فرنسة البلاد، فرنسة الجزائر، فرنسة الشعب الجزائري.

وكان يرى أن الجزائر أرض صالحة للاستغلال ولمد فرنسا بقوة عسكرية وسياسية ستسهل عليها مهمة الاستيلاء على بقية أجزاء العالم الذي كان يعرف انحطاطا رهيبا والتنافس كان على أشده بين فرنسا الإمبراطورية التي تغيب عنها الشمس بريطانيا العظمى فالرجل كان مقتنعا تماما بأنه بوسع فرنسا استعمال وسائل أخرى غير الحرب لكبح جميع الشعب الجزائري وإحكام قبضة الاحتلال عليه فهو كعالم اجتماع ومفكر كان يرى في تشريع المجتمع الجزائري وبتسليط الضوء الشديد على التركيبة الاجتماعية وعلى منظومة قيمه وخصائص دينه.

فقد كان يدافع عن موقفه الداعم للاحتلال باسم الوطنية التي تستدعي ضرورة الدفاع عن سمعة فرنسا ضد انجلترا في سياق التنافس الاستعماري [1]

ودعا أيضا طوكفيل إلى الفصل العرقي في الجزائر لذلك يجب أن يكون في إفريقيا الجزائر تشريعان مختلفان تماما عن بعضهما البعض إذ أن هناك مجتمعان منفصلان تماما عن بعضهما البعض إذ أن هناك مجتمعان منفصلان تماما وليس هناك على الإطلاق ما يمنعنا من معاملة الأوروبيون كما لو كانوا يحكمون أنفسهم إذن القوانين التي ستسن لهم ستطبق عليهم فقط، هذا التشريع سينفذ حسب قرارات كريميوا، والتشريع المحلي 1881م، الذي أعطى الجنسية الفرنسية للمستوطنين اليهود الأوروبيون فقط بينما الجزائريين المسلمين سيقيدون بجنسية فرنسية من الدرجة الثانية.

وفي نظر طوكفيل أن المجتمع الجزائري كان نصف متحضر وأن له حضارة مختلفة مقتنعة والدليل على ذلك أنه كان يتمتع بمؤسسات كثيرة خيرية وتعليمية كان هدفها سد الحاجات الاجتماعية وخدمة التعليم العمومي ولكن الغربيين كما قال وضعوا أيديهم على مداخيل هذه المؤسسات في كل كان ووجهوا أجزاء منها لخدمة أغراض أخرى غير اغراضها التي أنشئت من أجلها. [2]

بحيث صرح دوطوكفيل:" لقد وضعنا أيدينا في كل مكان على هذه الأملاك والأوقاف ثم وجهتنا غير الواجهة التي كانت تستعمل فيها الماضي لقد عطلنا المؤسسات الخيرية وتركنا المدارس تموت والندوات العلمية تندثر.

---

[1] دوطوكفيل، مصدر سابق، ص09.

[2] أبو القاسم ن سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال**، ط. خ، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص283.

وأثناء زيارته المتكررة للجزائر حرص طوكفيل على جمع الوثائق اللازمة مسجلا ملاحظات جد دقيقة عن مشاهدته وعن لقاءاته بالجنرالات الفرنسيين وغيرهم ولم يقف عند هذا الحد بل انكب على دراسة القرآن وفي النهاية توصل إلى أن الاستعمار ضروري لضمان الهيمنة والتوسع ورأى ضرورة إنشاء مستعمرات في كل مكان وتهجير السكان والاستيلاء على أراضيهم ويجعل أليكس مكانة فرنسا في العالم معيارا أساسيا يستند إليه في تحليلاته.[1]

ومن بين الملاحظات الخطيرة التي دونها طوكفيل في رسالته الثانية وهي تتعلق بجهل فرنسا لواقع الجزائر والحديث عن اختلاف الأعراق واللغات والشعوب.

واقترح طوكفيل إنشاء دولة تعمل لحساب فرنسا في الجزائر محذرا من القبائل وانقلاباتها، أما عن تناقضات " طوكفيل " فقد كان يرى بأن الاستعمار الفرنسي يصطدم بثلاث عقبات رئيسية وهي على التوالي:

1- سيطرتهم على "الأندجينا " (أهالي السكان الأصليين) حدود هذه السيطرة وسائلها ومبادئها

2- إدارة الأوروبيون حدودها وضوابطها

3- الاستيطان مكانه أشكاله وطرقه إذ أنه كان يرى أنه كلما سنحت له الفرضة لمعرفة البلاد وسكانها الأصليين ستظهر منحة الفائدة والحاجة إلى استقرار الشعب الأوروبي في أرض إفريقيا وفي هذا السياق الاختيار لهم والقرار.

وفي الأخير لم تكن كتابات طوكفيل تروق بعض الفرنسيين ولذلك أهملوها وقلما أشاروا إليها ولم تجمع كتاباته عن الجزائر إلا سنة 1968 رغم انه كان يقف مع الاستعمار كما رأينا والقضاء على المقاومة الوطنية وكان يعتبر الجزائريين أدنى حضارة من الفرنسيين وعلى هؤلاء أن ينقذوهم ويخرجوهم من التخلف بالعدل والرحمة والتعليم[2] وهذه كانت هي عقيدة الليبراليين الأوروبيين عموما وكذلك عقيدة السانسيمونيين[3].

وهكذا كتب طوكفيل غداة مغادرة الجنرال الجزائر في تقريره للجنة البرلمانية قائلا: إننا حولنا المجتمع الإسلامي أكثر بوسا أكثر فوضوية وأكثر جهلا مما كان عليه قبلا أن يعرفنا "[4].

---

[1] حسونة المصباحي، (**ألكسيس دوطوكفيل: استعمار الجزائر**)، من ج. ش. أ. إ، ع 8292، أوت 2001.

[2] سعد الله أبو قاسم، مرجع سابق، ص 285.

[3] السانسيمونية: مذهب إيديولوجي فكري ظهر في أوروبا مع مطلع القرن 19 على يد سانسيمون يقوم أساسا على المثالية الاشتراكية التي وجدت في الوضع الأوروبي ميدان خصبا لانتشارها، وهو الوضع الذي انتهى إلى الإعلان عن البيان الشيوعي 1848م، وكانت قد تأثرت بها فرنسا منذ الظروف المأساوية التي ادت إلى ثورات (1830/1848م).

[4] سعدي مزيان، **جرائم فرنسا في الجزائر من الجنرال بيجو إلى الجنرال " أوساريس، صفحات مظلمة من تاريخ الجزائر الاستعمار الفرنسي في الجزائر من خلال 1830 إلى الاستقلال 1962**، دار هومة، 2009، الجزائر، ص24.

المطلب الرابع: بطاقة فنية للكتاب

الفرع الأول: الوصف الخارجي للكتاب

العنوان: كتابات طوكفيل عن الجزائر 1837 – 1847 (طوكفيل بين الديمقراطية والاستبداد)

المؤلف: ألكيس دوطوكفيل

ترجمة: علي زيكي

تعريف المترجم:

البروفيسور " علي زيكي " أستاذ التعليم العالي بمعهد الترجمة جامعة الجزائر 2، متخصص في الفلسفة، له عدة دراسات وأبحاث أكاديمية حول بعض مشكلات الفلسفة الاسلامية وعلاقاتها المؤثرة بالدين والسياسة وبالفلسفة الإغريقية.

شارك في العديد من الملتقيات العلمية الوطنية والدولية، تناولت البحوث المقدمة علاقة الفلسفة بالعلوم الاجتماعية والعلوم الوضعية وبالفن.

كما رمى بسهمه ضمن السهام الكثيرة المتناولة لتصوف الأمير عبد القادر الجزائري من منظور مواقفه المستنيرة من الفلسفة ومن قضايا عصره المتأجج بنيران الحروب هذه الأبحاث هي عقد الجمع والتحرير لتطبع لاحقا. [1]

الطبعة: الأولى

دار النشر: دار الجائزة للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر

سنة النشر: 2016

عدد الصفحات: 336 صفحة

حجم الكتاب: حجم متوسط

المقاس: 23*15.5

تمهيد: دحو جربال[2]

[1] ألكسيس دو طوكفيل، **كتابات دو طوكفيل... الديمقراطية والاستبداد**، مصدر سابق، ص337.

[2] أستاذ في التاريخ المعاصر في قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، وهو منذ 1993، مدير مجلة " نقد" التي تعنى بالدراسات النقدية الاجتماعية، وبعد عقود من العمل في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي انتقل إلى حصاد شهادات أبطال الكفاح والنضال

الفرع الثاني: محتوى الكتاب الداخلي

الكتاب ذو لون أبيض يعلوه العنوان بخط متوسط الحجم بجانبه على اليمين صورة للكاتب طوكفيل ليحتوي الكتاب أيضا على صورتين الأولى لانطلاقة الأسطول الفرنسي من ميناء طولون، لتعبر الصورة الثانية على الاحتلال ووصوله إلى ميناء سيدي فرج ودخوله إلى الجزائر في 14 جوان 1830.

هذا بالنسبة للجهة الأمامية للكتاب، أما الجهة الخلفية له فتحتوي على صورة على اليمين للكاتب طوكفيل وبجانبها مجموعة من الأقوال الخالدة لطوكفيل لتذكر دار النشر ومعلوماتها أسفل الكتاب

يحتوي الكتاب على أربعة فصول، وكل فصل يتضمن عناوين متفرعة حيث نجد الفصل الأول يبدأ من الصفحة 65 إلى الصفحة 95.أما الفصل الثاني فيبدأ من الصفحة 95 إلى الصفحة 169، والفصل الثالث من الصفحة 169 إلى الصفحة 301، وأما الفصل الرابع والأخير من الصفحة 301 إلى الصفحة 336.فقد استهل المؤلف كتابه بتمهيد بقلم الأستاذ دحو جربال الذي يبدأ من الصفحة 7 إلى الصفحة 27، ومن أهم ما جاء فيه من عناوين "ألكيس دو طوكفيل عن المستعمرة في الجزائر، وفيها جاء تعريف طفيف للمؤلف، ليثقل فيما بعد إلى القضاء على المقاومات لترسيخ السيادة الفرنسية وكذلك " سنن الحرب " ثم " استعمار الجزائر واستيطانها.

ثم نجد تقديم للمترجم علي زيكي فقد احتوى هذا التقديم على مجموعة من العناوين بداية كانت بـ " الجزائر – فرنسا: 130 سنة من الهيمنة والمقاومات وطوكفيل " رسول " الديمقراطية وداعية الاستعمار الاستيطاني ثم انتقل إلى طوكفيل في رحاب اللغة العربية ثم "طوكفيل والجزائر" ثم "طوكفيل الرسول الملهم للديموقراطية والداعية المتحمس للاستعمار الاستيطاني" وتطرق أيضا إلى "طوكفيل الداعية للديموقراطية والفقيه في الاستعمار الاستيطاني" ثم "طوكفيل يدافع عن الاستيطان".

ثم ليدخل مباشرة في محتويات الكتاب.

الفصل الأول: جاء بعنوان "رسالة عن الجزائر 1837" وفيها جاء تفصيل لهذه الرسالة ثم انتقل إلى عنوان آخر عنونه ب "ماهي الآمال المعقودة الممكن تصورها ووضعها؟"

أما فيما يخص الفصل الثاني الذي جاء بعنوان "ملاحظات عن رحلة إلى الجزائر عام 1841" وهذا الفصل يتضمن العناوين التالية "المظهر العام للبلاد" الذي تفرع إلى عناوين أخرى أولا" 07 مايو

= التحرري وهو يعمل أيضا على مستوى العلاقة بين الجزائر والذاكرة من مؤلفاته: المنظمة الخاصة لفيدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني.

1841" ثم "المظهر الأول للمدينة "ثم " السبت 8مايو 1841" ثم "زيارة الأسقف" إضافة إلى "وهران: المرسى الكبير" ثم "قبطان ميناء أسيني " وبعدها "إدارة ميناء المرسى الكبير" لينتقل بعدها إلى" الخندق المحفور حول وهران " و"مقاطعة وهران" وكذلك الشكل الخارجي العام للبلاد ثم "الأشغال المدينة لوهران" وتحدث أيضا على ماهي العقبات التي تعرقل أكثر التطور الصناعي لهذا المرتفع الجبلي والحال أن الأمنة بات مستتبا وبصفة دائمة وعن أحداث 23.24.25 مايو 1841.

ثم "زيارة للسيد فيلهون " وبعدها 26" مايو" ثم "العبادة الكاثوليكية" وبعدها "27.28.29 مايو 1841".

لينتقل بعدها إلى مقابلة ثانية مع السيد دي سان سوفر " ثم زيارة إلى قائد المنطقة وفي الأخير تحدث عن أحداث 30 مايو وقضايا الأسواق "

أما الفصل الثالث جاء بعنوان انشغال بالجزائر 1841 استهل بما هي وسائل النجاح الناجعة؟ ثم إلى السيطرة الكاملة والاستيطان الجزئي وبعدها الهيمنة وسبل تحقيقها التي تطرق فيها إلى مجموعة من العناوين الفرعية بداية ب " لا مجال لتضييع الوقت إذا أردنا أن نسف قوة عبد القادر، ثم لا يجب اليأس مرة أخرى من إمكان القضاء على عبد القادر ونجد كذلك أي نوع من الحرب يمكن بل يجب علينا القيام بها ضد العرب وبعدها الوسائل المستعملة لحرب بأقل كلفة وخسارة.

ثم لينتقل إلى من هم الضباط المؤهلون لتولي القيادة وتطرق المؤلف أيضا إلى الاستيطان الذي بات من الضروري استعماله في الحرب، حيث تطرق إلى هل يمكن القيام بالاستيطان قبل فرض الهيمنة وانتهاء الحرب " بالإضافة إلى من أي جهة يبدا الاستيطان، وبعدها الظروف المادية للنجاح وشملت عدة نقاط نذكر منها " تنقية السهل وتدعيم الملكية وإنشاء القرى ثم تطرق إلى ضرورة إقامة جسر من ذهب للقادمين إلى إفريقيا وبعدها تحدث أيضا على المؤسسات الاجتماعية والسياسية وفي نمط الحكومة لإقامة الاستيطان وتأمينه ثم الضمانات التي تعطى للمواطنين.

وانتقل في عنصر آخر إلى الاصطلاحات الضرورية ومن أهم ما جاء فيها " التعديلات التي يجب إضافتها للتشريع ثم الضمانات الممنوحة للمواطنين".

أما الفصل الرابع والأخير جاء بعنوان " تقرير عن الجزائر 1847 شمل عدة نقاط منها: موضوع وخطة تقرير ثم الهيمنة على الأهالي وحكمهم وبعدها تقسين سكان الأهالي إلى ثلاثة مجموعات رئيسية الصحراء الصغرى، منطقة القبائل المستقلة والتل ثم تقسيم التل إلى منطقتين متميزتين وورد أيضا في الكتاب لماذا يجب أصلا الحد من توسع احتلالنا ثم كيف توصلنا إلى معرفة واتخاذ أحسن الوسائل لاحتلال

البلد، وبعدها ماهي الوسائل التي يتعين اتخاذها للتقليل المتدرج من تعداد الجيش ثم تنظيم حكم الأهالي ثم كيف يجب أن تتحدد الذهنية العامة لحكومتنا إزاء الأهالي وكذلك من بين ما نجده في محتويات الكتاب التعليم العمومي لدى الأهالي وكيف يجب أن نتصرف إزاء الأراضي ثم انتقل المؤلف إلى عنوان آخر ألا وهو " يجب تقييد الصفقات العقارية الجارية بين العرب والأوروبيين " ثم ماهي النتائج التي يؤمل الحصول عليها من تأثير حكومة صالحة على الأهالي لينتقل في الأخير إلى العبودية في إفريقيا.

وفي الأخير نجد الهوامش ومراجع الكتاب بالنسبة للفصول الأربعة.

المبحث الثاني: دراسة محتوى الكتاب

المطلب الأول: رسالة عن الجزائر

المطلب الثاني: ملاحظات عن رحلة إلى الجزائر

المطلب الثالث: الانشغال بالجزائر

المطلب الرابع: تقرير عن الجزائر

بدأت كتاباته عن الجزائر ومن ثم التنظير للقضية الجزائرية سنة 1837 م، فكانت نصوصه في هذا المجال محل اهتمام من الغرب فبالإضافة إلى نشرها مرات عديدة في طبعات أعماله الكاملة تناولها الدارسون غير مرة ومن بين هذه النصوص هي رسالة عن الجزائر تحمل ثلاث نصوص الأول بعنوان عمل عن الجزائر، والثانية هو عبارة عن مجموعة تقارير عن الجزائر، والثالثة هو عن يوميات رحلته للجزائر.

وقد نشرت هذه الرسالة في جريدة " La presse de seinetoise " سنة 1837 وهي رسالة مفتوحة تندرج في سياق حملته الانتخابية إثر ترشحه لذلك. يمكن اعتبارها نصا دعائيا هدف من ورائه إلى إظهار معرفته الدقيقة بالشأن الجزائري وعاداته وتقاليده وبعض خصاصه مع تقرير أولي لكيفية التعامل معه، وتجدر الإشارة أنه قد سبق هذه الرسالة برسالة أخرى لخص فيها مراحل التاريخ الجزائري، لكن الدارسون اعتبروها غير ذات فائدة.

المطلب الأول: رسالة عن الجزائر

تناول طوكفيل ف هذا الفصل الذي هو بعنوان رسالة عن الجزائر 1837- 1847م مقاومة الجزائريين والتحديات التي تمثلها في طريق تجسيد المشروع الفرنسي كما دافع عن الاستيطان الأوروبي في الجزائر، حيث في بداية حديثه عن هذا البلد أبدى جهله التام عنه من كل النواحي خاصة العرقية منها ولغة سكانه، جغرافيته وموارده، دياناته ومدنه وحتى مناخه، حيث أنه صرح عن المسافة الفاصلة بينهم وبين الجزائر بـ 160 ميلا بحريا تقريبا، لينتقل بعدها بقوله أن قهر أمة بالقوة العسكرية وحدها لا يلين جانبها للحكم السياسي، حيث صرح في رسالته هاته عن حرصه الشديد لمحو كل معالم وآثار سيطرة العدو (الأتراك) حيث حرف جميع الوثائق المكتوبة والسجلات الإدارية والشهادات الأصلية منها وغيرها، كما أكد أنه انفتح عهد جديد مع هذا النصر، ليقول أنه من المفترض عليهم تجنب كل ما من شأنه أن يربط الماضي بالحاضر ربطا عشوائيا، كما ذكر أنهم التجأوا إلى تهديم العديد من الأزقة وطرقات مدينة الجزائر، ليعاد بناؤها وفقا للطريقة الفرنسية، وفرنسة الأخرى منها في تسميتها.[1]

علاوة على ذلك أعاد ذكر فكرة جهلهم عن تنظيم العشائر وانقسامها إلى صفوف وطبقات، فاختلطت عليهم الأمور إلى درجة أنهم باتوا على يدركون ما إذا كان اسم المرابط يطلق على قبر أم على إنسان، كما تطرق أيضا إلى ذكر القبائل الذين عاشوا في نوع من الاستقلالية عن الأتراك، وذكر موقفهم اتجاه الحكام الجدد من الفرنسيين كموقفهم إزاء الأتراك، سبب كرههم الطبيعي لكل من هو أجنبي عليهم،

[1] ألكسيس دو طوكفيل، **كتابات طوكفيل عن الجزائر 1837-1847**، طوكفيل بين الديمقراطية والاستبداد، تر: عل زيكي، ط01، دار الجائزة للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، 2016، ص 67-77.

بالإضافة إلى نفورهم الشديد من المسيحيين. فقد توجه في رسالته أيضا إلى القائد الأمير عبد القادر والداي أحمد ليتحدث عن طرق تحركهما ويفصل في كل منطقة لهما ومما كان ينجزانه ومدى تأثيرها بين الأهالي.[1]

كما أبدى رأيه في ضرورة تكييف العادات الإدارية الفرنسية مع عادات الجزائريين وتعلم لغة وذهنيات وأعراف العرب وواجب استفادتهم من دروس احترام الجزائريين للحاكم القائم، ليشير بإمكانية ذلك من العودة اليسيرة والمتدرجة إلى العادات الفرنسية، سهلت عملية فرنسة البلد المحيط وتدارك بسرعة الأخطاء المرتكبة.

يذكر في هذه الرسالة أن العرب استقروا وعاشوا في اليمن منذ ألفي سنة وقد توسعوا واجتازوا افريقيا وصولا إلى اسبانيا وطبقوا النظام العشائري الذي يعتبر من أقدم وأصعب النظم المؤسسات الإنسانية، يذكر كذلك أن الاستقراطية العسكرية ودينية لا يجب القضاء عليها بل العمل لتسخيرها لخدمة مصالحنا كما فعل الأتراك.

في حين نجد أيضا أن طوكفيل ذكر بحذر بخصوص ما ننوي القيام به في الجزائر وشدد على السعي إلى توحيد كل شيء وصبه في قالب واحد ولا يجدر تطبيق قانون واحد على كائنات مختلفة ومتباينة في حين استقر الفرنسيون والعرب في مقاطعة إدارية واحدة، فالضروري البدء في العمل على تطبيق كل قانون لكل شعب حسب مفهومه واحترامه. ووضع رئيس سياسي ثم التوحيد بين الشعبين، وقد ميز بين العمل بين التشريع المنظم لشؤون الفرنسيين في إفريقيا وبين القانون المطبق في فرنسا.

ذكر كذلك أنهم في حاجة إلى إفريقيا كما في فرنسا التي تضمن أساسيات الإنسان. فقط وضعوا إدارة بسيطة للمحافظة على الروح السياسية لفرنسا.[2]

في النهاية يذكر طوكفيل رأيه حول إقامة نصب تذكاري في قرن إفريقيا والدخول إلى الجزائر مع مرور الزمن وبأنهم سكان بسطاء رغم امتلاكهم للأراضي شاسعة وأنه يمكن لسكان الأجانب الاستقرار إلى جانب العرب دون خوف، فمن خلال هذا ستكون للفرنسيين الأثرياء امتلاك أجزاء واسعة من الأراضي ومنها يتوكلون إلى العشائر المحيطة بهم ويذكر كذلك أنه لابد من إقامة علاقات ودية ودائمة لتشكل شعب واحد من عرقين، ويذكر الدور الديني الهام وبأنه السبب في إشكال فشل الحرب المعلنة وأنه دوره كان ثانويا.[3]

يقول هذا الأخير بعد فشل الروح الوطنية في تجنيد الناس فسدوا، فالدين لم يمنعهم من التعامل ومساعدتهم، ويذكر أنه من الخطأ الفادح الاعتقاد بأن عادات العرب الدينية تمنعهم من العيش معنا، ويذكر بأنه العرب عاشوا في إسبانيا كحضريين ومزارعين منهم ليسوا بالضرورة والطبيعة رعاة لا غير، أيضا تكلم عن طريقة عيش السكان العرب وأنهم يحبون التنقل.

---

[1] طوكفيل، مصدر سابق، ص 78-84.
[2] نفسه، ص 84-87.
[3] نفسه، ص 88-89.

في آخر الرسالة يتكلم طوكفيل عن العلاقة بينهم وبين العرب بأنهم يتقاربان أكثر وسهولة الاختلاط بينهم وقد تكونت انطباعات إيجابية وسلمية ويذكر كذلك أنهم أصبحوا يتقنون لغتنا.[1]

المطلب الثاني: ملاحظات عن رحلة إلى الجزائر عام 1841

المظهر العام للبلاد

07 مايو 1841

في هذا الجزء يذكر وصوله إلى مدينة الجزائر مرورا بوهران ويقول أنه رأى الرأس كاكسين الذي هو عبارة عن جبل مخضر، وحين اقترابه من المحطة البرية باتت صغيرة الحجم من خلالها تنكشف مدينة الجزائر.[2]

المظهر الأول للمدينة

في هذا العنصر يصف الأعراف المختلفة المتواجدة في الجزائر ومدى تفاعلها، واختلاف اللهجات والأزياء وحالة البناء المهدم أو التي قيد التنصيب واهتمام الفرنسيين المهتمين بعملية الهدم، فقد عملوا على استبدال الأزقة الضيقة بطرقات الكبرى الواسعة لأنها تناسب حياتهم، فيصف منازلهم التي بنيت على الطريقة الموركسية.[3]

السبت 08 مايو 1841

يصف طوكفيل متيجة وإعجابه بمناظرها الخلابة، كما يصف أرضها النباتية المخضرة ويقول لو كان بالإمكان فلاحتها وعمارتها بلا حمل السلاح في اليد والمحراث في اليد الأخرى.[4]

زيارة الأسقف

يذكر زيارته إلى الأسقف الذي هو رجل فكر وثقافة عالية رغم الميل الشديد إلى الشعوذة، كذلك يقول أنه حضر سباقا في القصبة.

يرى بأن مدينة الجزائر عبارة عن جحر الثعالب وترتاد ملاهي فتيات من الموريكسيات، وبأن هذا خليط عجيب من الرذائل بين الحضارتين.

وهران المرسى الكبير

يذكر هنا رؤيته للمدافع المنصوبة على مدخل المرسى الكبير والتي قدر عددها نحو 30 قطعة مدفعية.[5]

---

[1] طوكفيل، مصدر سابق، ص 89 – 92.
[2] نفسه، ص 96.
[3] نفسه، ص ص 96-98.
[4] نفسه، ص 99.
[5] نفسه، ص 100.

قطبان ميناء آسيني Assigny

أما عن الميناء فيذكر عدد السفن الحربية التي قدرها بين 15 و20 سفينة ومشكلة توفير الدفاع بحرا.[1]

إدارة ميناء المرسى الكبير

المشرف آسيني قدم معلومات إلى طوكفيل على تسيير المحطة الذي أشرف عليها منذ 15 شهرا، وهي حول طبيعة الرياح والبحر وملاحظة الرائد آسيني على إحكام ربط السفن ويشير إلى ذكر أن رغم هذا فالمرسى يواجه صعوبة النقص في المياه ولكنه ليس بالعائق، كما أن هذا الأخير ذكر فضل الاسبان في المنشأة دفاعية قوية.[2]

الخندق المحفور حول وهران

في حين آخر نجده تكلم عن خندق حفر في وهران من قبل مجموعة من أفراد الجيش في ثلاثة أشهر ويقدم طوكفيل وصفا له وعن طريقة حفره ومن قام بها من حفره من مدنيين أو عسكريين.

ويذكر أن العقيد مونبوزا خطط للاستلاء على أكبر جزء من سهل وهران وبنفس الطريقة لأنه يحقق له أغراض ومقاصد مختلفة وفوائد مدنية وعسكرية والتحكم في التجارة غير الشرعية.[3]

مقاطعة وهران

قدم معلومات على الكثافة السكانية المتواجدة في وهران وعدد الأحصنة وهذا حسب ما قدمه لاموريسيير.

الشكل الخارجي العام للبلاد

في هذا العنصر يذكر طوكفيل وصف الخارجي لوهران من المساحة والحدود إلى ضيقة الأراضي المتواجدة فيها، وذكر ما تقدمه من إقطاعات زراعية، كذلك ذكر أنه في حالة شن الغارات فإنهم يفرون إلى الجبال وهذا استلزم إقامة ثكنة عسكرية، كذلك قد قدم العقيد منبوزا أرقام حول حشد الجنود في المعسكر وعن كيفية قضاء الجنود وقتهم فيه.[4]

[1] طوكفيل، مصدر سابق، ص 100.
[2] نفسه، ص ص 101 – 102.
[3] نفسه، ص ص 102 – 104.
[4] نفسه، ص ص 105 – 106.

أرزيو

زار طوكفيل هذه المنطقة صباحا حيث نزل على اليابسة أين ينتصب السور الذي بناه الفرنسيون ويحميه الجنود بصفة دائمة، وذكر الحواجز المنيعة ومياه الآبار المالحة والشحيحة، وذكر بأنه مرسى لاستقبال السفن التجارية وايواء السفن الحربية وبأنه غير آمن وذكر سلبيات هذا المرسى الكبير.[1]

شرشال

ذكر صعوبة الاستلاء على هذه المدينة لأن حمايتها وحدها يتطلب ثكنة عسكرية كبيرة وحاشدة من الجنود.[2]

بنود وريز وأزمالة

في هذا الجزء تكلم عن الأراضي التي تقطنها العشائر وعن الاتفاقيات المبرمة بين الفرنسيين وعبد القادر وذكر أنهم تنازلوا عنها لصالحه وفق بنود اتفاقية التافنة ويقول طوكفيل أنه على العموم أن جميع التحالفات والاتفاقيات قد انتهت سواء إفريقيا أو غيرها.[3]

23 مايو 1841

ذكر لقاءه بسيد هورتيس وهو معمر ذو نفوذ قوية الذي زار ملكيته الخاصة من الأرض وشاهدوا قطع الأراضي الشديدة الاخضرار، ويذكر كذلك رؤيته لقطع أراضي أخرى شاسعة مغروسة بمختلف أنواع الأشجار الفواكه وأنواع من الخضر ويشير إلى أنها في حالة جيدة راجع إلى اهتمام الفلاحين بها.[4]

ما هي الزراعة المناسبة لها؟

في هذا الجزء تكلم عن الزراعة والتربة الخصبة وما يستطيع زرعه أو إنتاجه من أشجار الفواكه ويقول بأنها مربحة.

وذكر وقت وطريقة زرع القمح بشرط الاهتمام والمتابعة وتكلم أيضا عن التجربة التي سوف يقوم بها.

كما ذكر العقبات التي تعرقل التطور الصناعي لهذا المرتفع الجبلي وقال بأنها عيوب الملاك الصغار والعمال اليدويين فهي بأيدي كبار الملاك.[5]

---

[1] طوكفيل، مصدر سابق، ص 107.
[2] نفسه، ص 108.
[3] نفسه.
[4] نفسه، ص ص 109 – 110.
[5] نفسه، ص ص 111-112.

23 مايو 1841 مساء

لقاء طوكفيل بالأسقف وتبادل الحديث عن عملية تبادل الأسرى وذكر خليفة عبد القادر وحديثه مع الاسقف وعن الحروب والعنف الذي يمارسه الفرنسيون ضد العرب، ووجوب عقد اتفاقية هدنة وسلم بين الطرفين، وطلب من الاسقف التوسط لذلك، لأن لابد من الطرفين يقوى على ذلك وأن تكون جادة.[1]

24 مايو 1841

قابل طوكفيل السيد Lepécheux مدير التربية لمدينة الجزائر من أجل إصلاح ما شئنا من القضايا الكبيرة والصغيرة، فكما ذكر فإن الفساد عميق جدا ويصعب استئصاله، ويشير إلى أن السلطة القرار توجد في باريس، في حين أنها تفتقر إلى مقر بسيط في الجزائر، فهي الأخيرة تأخذ القرارات دون استشارة أحد من مسؤولي المصالح الإدارية في الجزائر، وتكلم كذلك عن الموظفين والعمال المدنيين هم الأكثر قهرا وتعسفا لسلطة المدنية.[2]

مايو 24

في هذه النقطة يتكلم عن السيد جيبو مدير الشأن الداخلي للجزائر وعن طريقة عمله وتحمسه في اتخاذ قرارات في مختلف القضايا، وهذا ما قام لورانس بتجميعه المبالغ في الإدارة المركزية لقرارات لم يطلبها ولم يستشر أحد فيها، وقد روى لهم العديد من القصص حول علاقاته بالسلطة العسكرية.[3]

24 مايو 1841

التقى طوكفيل بالسيد هنريو Henriot ويقول أنه إنسان سخيف فيتذكر هذا الأخير قد اشتاق إلى العودة إلى فرنسا حين ترك زوجته وأطفاله، فكان في اعتقاده بأن فرنسا لن تفعل شيئا في الجزائر ووجب الخروج منها.[4]

ملاحظات عامة

قدم طوكفيل بعض الملاحظات حول الجزائر التي بينت دناءة وحقارة ما قام به Laurence وأنها باتت معروفة لدى العام والخاص، فيذكر قائلا أن أهم ما يعرض على المجالس المنتخبة بخصوص الجزائر هو كذب وبهتان.

---

[1] طوكفيل، مصدر سابق، ص 113.
[2] نفسه، ص ص 114-119.
[3] نفسه، ص ص 120 – 121.
[4] نفسه، ص 122.

كذلك من بين الملاحظات نجد ما قاله الدكتور Trollier في مساء 24 مايو أن المؤسف هو تكليف الحكام بتسيير بلد وبدون أن يخضعوا لأية مراقبة إضافة إلى هذا فيذكر قائلا أنه لم توجد مستعمرة واحدة في وقت مضى عوملن ما عوملن مدينة الجزائر.[1]

25 مايو 1841: زيارة إلى المعهد

أما في هذا الجزء فقد تكلم عن زيارته إلى المعهد الذي يتردد عليه التلاميذ فقدره 150 تلميذ من بينهم 30 تلميذ مسجلين في النظام الداخلي مع إجبارية تدريس اللغة العربية للجميع، وهذا المعهد قام على نظامين حسب طوكفيل، ذكر هذا الأخير في هذا الجزء أن مدير المعهد يشتكي من الاسقف ومن طريقة استقباله لبعض التلاميذ وزيارته للمكتبة التي تضم عددا معتبرا من المخطوطات العربية واستقدمت معظمها من قسنطينة أما الباقي فقد أتلف وضاع، ويذكر لقاءه بربروجير حين خروجه من المعهد فقد عاشر العرب ولازمهم أكثر من غيره، يذكر خروج نسائهم للعمل ومن سافرات الوجه، كما ذكر زيارته إلى حجوط وسماه حديث العرب عن قطيع الماشية وبيعها ومعناه العرب فحرب تتعسهم.[2]

زيارة للسيد فيلهون Filhon

هنا قدم طوكفيل تعريف أو لمحة عن هذه الشخصية الذي يشتغل في منصب رئيس المحكمة العليا.[3]

26 مايو

زار طوكفيل في هذا اليوم فيالار Vialar ولخص كلامه حين قال أنه من الصعب دفع مسيرة الاستعمارية خطوة بعد خطوة وأن ما يعرقل سيرها يرجع إلى الأراضي غير المهيأة بما يكفل نجاح العملية الاستيطانية، وذكر كذلك سهل متيجة الذي قال عنه بأنه ملوث ومحدود الخصوبة رغم أن له بعض المحاصيل، وذكر أنه كلما اتجهنا صوب الاطلس نجد الأراضي أكثر خصوبة، فحسب هذا الأخير لنجاح العملية الاستيطانية يجب توفير الأراضي الخصبة وحشد المزارعين لمشاركة في هذه العملية.[4]

العبادة الكاثوليكية

ذكر بأن الاسقف يشتكي وأن له الحق في ذلك من خلال علاقته مع السلطة العسكرية فلم يعطوه حقه أو كل ما يحتاجه في الكنيسة أو تعيين مساعدين له.[5]

[1] طوكفيل، مصدر سابق، ص ص 123 -124.
[2] نفسه، ص ص 125 – 130.
[3] نفسه، ص ص 130 – 132.
[4] نفسه، ص ص 133 – 134.
[5] نفسه، ص 135.

27 مايو 1841

اختلاف الآراء ومواقف المجلس القائمة على المركزية والمداومة في تعريف الشؤون العربية وذكر عن تشتت الوثائق ومجموعها 1300 رسالة.[1]

28 مايو 1841

حسب رأي أورتيس Urtis فعدد الرجال ورؤوس الأموال غير كافية للقيام بالعملية الاستيطانية ويتعين الجمع بينهما إضافة إلى الثقة وكل الثقة، ويذكر بأن الحكومة بدافع المصلحة تريد الاحتفاظ بكل شيء وهذا ما تداول على ألسنة عامة الناس، يذكر كذلك أن هناك عقبتان أمام الاستيطان هما: عدم الطمأنينة وثقة الملاك.[2]

28/27 مايو 1841

إن السيد سان سوفر Saint -sauveur الذي عمل قبطانا وشيخ عشيرة لمدة عام لمقاطعة وكان من بينها أراضي أخرى قام شيخ العشيرة بتقسيمها إلى ثلاث حصص وكل حصة يقسمها شيخ العشيرة، والملكية الشخصية تبقى ملكية المحصول، فالعرب يتنقلون من عشيرة لأخرى بكل سلاسة ويكون لمصلحة القائد التمسك بهم بسبب الضرائب، وذكر بأن العرب لا يدخرون أي شيء لمسنا بتهم، وهم عبارة عن فلاحون ومزارعون قضاياهم لا تنتهي وشكايتهم وحياتهم لا تخلو من الفراغ والطيش، على عكس سكان القبائل الذي كان همهم الوحيد التجارة.

29 مايو 1841

يصف دخوله إلى بجاية على الساعة السادسة صباحا والمناظر التي شاهدها، كما وصف الآثار والجبال والسهول، وتكلم أيضا عن الساحل الطويل.[3]

مقابلة ثانية مع السيد دي سان سوفر M. De st Sauveur

قابل طوكفيل هذه الشخصية الذي كان تحت قيادته ثلاثة عشائر ويذكر أنه الفرنسي الوحيد الذي عاش على هذه الحالة، وحين ودع العرب كان عيناه تبكيان مدرارا، ويذكر أن الحديث كله جرى حول القياد والاستيطان.[4]

ويشير إلى ذكر جنرالين، الأول جالبوا Galbois والذي يرى تعريف شؤون العرب تكون وفق قوانينهم الخاصة على أن يتولى ذلك لأمر الفرنسيون في حين الجنرال نيجريين Négrine، فيقول على أن النظام يكون يسيره العرب بالعرب.

---

[1] طوكفيل، مصدر سابق، ص 135.
[2] نفسه، ص 136.
[3] نفسه، ص ص 139 – 140.
[4] نفسه، ص ص 141 – 143.

29 مايو مساءً

يصف مدينة جيجل حين دخوله لها، كما يصف الميناء والبيوت وإعجابه بالمستشفى.[1]

زيارة إلى قائد المنطقة

زار طوكفيل قائد المنطقة والذي بدوره قص عليه عن تقسيم العشائر الثلاث التي تحيط بجيجل وعن إبرام الصلح معها، فكان من الصعب تحقيق السلم خاصة مع قبيلة بني قايد وهي إحدى العشائر الثلاث لأنها تتفرع إلى عشرة شعب ولا تجمعها سلطة عليا مشتركة.

يذكر كذلك أنه كان من الصعب عليه التجوال في أراضيهم، وكان على القائد القيام بأول عمل وهو تزويد المدينة بالماء العذب الشروب.

30 مايو

في البداية يصف مدينة سكيكدة حين وصوله لها، فيذكر أنه قبل سنتين لم يكن فيها إلا كوخ واحد، والآن تؤوي العديد من البيوت المختلفة والمنتشرة هنا وهناك، وتحدث كذلك عن الأهالي ووصفهم أنهم أناس لا يفهمون إلا بالقوة، وذكر الهجومات التي قام بها، وقال عن مستعمري سكيكدة أنهم مجرد حفنة من الأوغاد، كان يكن لهم الحقد الشديد، ويقول طوكفيل أن هذا الكلام أحزنه كثيرا.[2]

أحداث متنوعة

1- قضايا أسواق الصوف

يذكر بأن الجنرال نيجريي Négrier ألزم العرب على بيع منتجاتهم من الصوف للجيش وحده بأثمان زهيدة وتباع له شخصيا، وهذا ما رفضه العرب كذلك ذكر تزايد عدد السكان في سكيكدة خلال سنتين.

ويقول بأن الأحداث الجديدة تتسارع كل حين ويشير إلى البيوت التي شيدت وفق مخطط عمراني أنه يجب هدمها بسبب المخطط الجديد.[3]

قضايا الأسواق

منع شراء الشعير من إفريقيا والعلف لدى المعمرين وتحصيله لصالح الجيش وارتفاع سعره.[4]

---

[1] طوكفيل، مصدر سابق، ص 144.
[2] نفسه، ص ص 145 – 150.
[3] نفسه، ص ص 151 – 152.
[4] نفسه، ص 153.

المطلب الثالث: انشغال بالجزائر 1841 [1]

تناول طوكفيل في هذا النص قضية التوسع العسكري الفرنسي في دواخل الجزائر والوسائل الكفيلة بتشجيع الاستيطان الأوروبي، كما تعرض للحرب التي يخوضها الجيش الفرنسي ضد الأمير عبد القادر والوسائل المستعملة فيها ومواصفات الضباط المؤهلين لإنجاح هذه المهمة والدور الذي يجب أن تؤديه الحكومة والإدارة لأجل ضمان استمرار المعمرين، وكذا الظروف القائمة من إصلاحات كفيلة بإنجاح هذا المشروع الاستيطاني.

ففي البداية تحدث طوكفيل عن فرنسا وموقفها من التراجع عن مستعمرة كالجزائر، فقد اعتبرتها غنيمة حربية لو أفتكت من أيديهم بالقوة الحية لأمة منافسة لكان أهون وأقل على النفوس والعقليات.

فالشعب الفرنسي ورغبته التوسعية لا يضطر إلى ترك المقاطعات والأقاليم التي استولى عليها مثلما حدث للإنجليز الذين تخلوا عن أجمل مستعمراتهم سنة 1783[2]. لكنهم عوضوها بعد ذلك خلال 30 سنة فقط، حيث تمكنوا من بسط نفوذهم على جميع البحار والمواقع التجارية للقارات.

فطوكفيل في رأيه أن التراجع عن مستعمرة كهذه يعتبر تراجع طائش سيقلل من مكانة فرنسا، فأي شعب مدفوع إلى التخلي بمثل هذه السهولة ينذر للملأ عن قرب نهايته التاريخية لينحصر في مرحلة الانحطاط.

يرى طوكفيل أنه يجب التمسك بمستعمراتهم بالرغم من اختلاف المواقف والآراء، حيث يقول: "فالقائلون بأننا سنبتاع المزايا التي قد توفرها لنا الجزائر بأجسم التضحيات لهم كامل الحق في ذلك" فيقصد من قوله هذا أن المواقف التي توحي بأن فرنسا لإفريقيا دارت كل اهتماماتها حول نصيبهم من مشروع تقسيم المشرق.

---

[1] التاريخ المذكور أعلاه 1841 يحدد وقت تحرير هذا النص (انشغال بالجزائر) الذي لم ينشر من قبل بعد سفر طوكفيل وعودته من الجزائر بمعية صديقه بومان. انظر: دوطوكفيل، **كتابات طوكفيل عن الجزائر 1837-1847 (طوكفيل بين الديمقراطية والاستبداد)**، مصدر سابق، ص 289.

[2] هزم الوطنيون الأمريكيون في المستعمرات الثلاث عشرة البريطانيون في حرب الثورة الكبرى 1775-1783 بمساعدة فرنسا (عرفت هذه الفترة للثورات الامريكية 1765-1783، وفي سنة 1775 تبعها إعلان استقلال المستعمرات البريطانية، وفي سنة 1776 قامت الحرب بين الطرفين، وفي عام 1783 عقدت معاهدة باريس والتي كانت منعرج حاسم في تاريخ البريطانيين، حيث استقالت وزارة لورنورث في 20 مارس 1782 تم الوصول إلى مكاسب من خلال معاهدة باريس في 03 سبتمبر 1783، من أهم بنودها اعتراف بريطانيا العظمى بأن المستعمرات الأمريكية التي كانت لها تتمتع بالحرية والسيادة والاستقلال للمزيد انظر: دان لمي، الثورة الأمريكية: دوافعها ومغزاها، ترجمة سامي ناشد، القاهرة، 1966، ج02، ص ص 40-41.

إن الجزائر تحتل موقفين استراتيجيين مهمين أول هذين الموقفين هو ميناء المرسى الكبير[1] الذي تترامى أطرافه على بعد 50 ميلا من قرطاجة يتربع على رأس القرنين الإفريقي[2] والإسباني، فهو يتحكم في مداخل ومخارج البحر الأبيض المتوسط، فبعد الفحص الذي أجراه طوكفيل مع القبطان آسينيي Assygny، تبين له بأن هذا الميناء يمكن أن يستقبل أسطولا مؤلفا من 15 باخرة على الأقل.

والموقع الثاني هو مدينة الجزائر، فهاتين النقطتين المتكاملتين والقائمتين قبالة سواحل فرنسا ستقوي شوكتها.

انتقل طوكفيل فيما بعد إلى ضرورة توفير العوامل التي تساهم في تحقيق الهدف الذي رسموه، ألا وهو الاحتفاظ بالجزائر مهما كان الثمن.

ولتحقيق ذلك اقترح جملة من الوسائل للنجاح لخصها فيما يلي:

- عدم الفصل بين الهيمنة والاستيطان[3] والعكس صحيح، ويوجد سبيلان اثنان لغزو البلاد:

1) أن يصبح سكان البلد المغزو تابعين للبلد الغازي.

2) أن يستعبد السكان الأصليون وتعويضهم بسكان البلد الغازي.

1) السيطرة الكاملة والاستيطان الجزئي

فالبعض طالب بضرورة تخلي فرنسا الكلي والفوري عن برنامج الاستيطان داخل البلد والاكتفاء ببسط نفوذها على المواقع السياسية للساحل وزرع المستوطنات حولها.

فطوكفيل يرى أن هذه الطريقة تشكل خطرا داهم عليهم، وأنه يتعين بذل أقصى المجهودات في سبيل الجمع بين الطريقتين المذكورتين قبل. فيجب توفر عنصر الاستيطان مع الهيمنة، فلو تركوا العرب وشأنهم وفرو لهم فرصة التشكل كقوة نظامية، وهذا سوف يقضي على مستقبل إقامتهم في إفريقيا، وبذلك قد تأخذ قوة مسيحية أخرى هذا البلد من أيديهم.

ولتجنب هذه الاحتمالات يجب في البداية التخلي عن فكرة عقد اتفاق سلام وطيد مع أمير عربي في الداخل فقد اعتبره طوكفيل لغو من الكلام وخداع لأنفسهم، فالحاكم دائما يكون عمله أو هدفه هو إشعال نار الحرب ضدهم مهما كان مسالما أو غير متعصب، فهو لا يتحكم في أفراد منعزلين كما هو الحال لدى

---

[1] ميناء المرسى الكبير هو أكبر قاعدة عسكرية بحرية في الوطن العربي وعلى مستوى البحر المتوسط، المرسى الكبير جزء منه مبني داخل الجبل ويتواجد غرب مدينة وهران وهو أكبر قاعدة بحرية مضادة للأسلحة النووية في البحر المتوسط.

[2] القرن الإفريقي: بالإنجليزية Corn Of Africa: هي المنطقة الواقعة على رأس مضيق باب المندوب من الساحل الإفريقي، وهي التي يحدها المحيط الهندي جنوبا، والبحر الأحمر شمالا، وتقوم عليه حاليا: أرتيريا، جيبوتي، الصومال، أثيوبيا، ويدخل فيها بعض الجغرافيين السودان وكينيا.

[3] عرف على انه انتقال مجموعة بشرية من مكان إلى آخر وهدا نتيجة الثورة الصناعية التي اجتاحت أوروبا وهو مصطلح حديث الاستعمال، يعتبر من الأساليب الاستعمارية، يعتمد على توطين أكبر عدد ممكن من الفرنسيين والأوروبيين بالجزائر لإخضاعها إلى أخطر أنواع الاستعمار الحديث. انظر: محمد حسين، **الاستعمار الفرنسي**، ط 04، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، 1968م، ص 80.

وعرفته المدرسة الفرنسية هو امتلاك الأراضي والثروات التي وقفها أو في باطنها وذلك الإهمال الذي يعانيه السطح أو لأنه يستغل بطريقة لتحقق منفعة كبيرة، ويظهر للمستوطن على أنه مستثمر يسعى لتحقيق تلك المنفعة، فقد جاء إما ليعمر تلك المناطق أو ليكون وسيط بين الأهالي المزارعين والأسواق العالمية، وتعدد نشاطاته في القطاعات الاقتصادية الثلاث لتعطيه صفة الاستيطان، وليحمل صفة المعمر أو المستوطن. انظر: سحن سعيد، الاستيطان من منطقة الونشريس والسرسر ورد فعل المقاومة الجزائرية 1830-1930م، مذكرة ماجستير، التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2007-2008م، ص 54.

ملوك أوروبا، بل إنه يتعامل مع عشائر أشبه بأمم صغيرة محكمة التنظيم، تسيطر عليها العواطف الدينية، والأمير عبد القادر [1] هو النموذج الحي والنادر والخطير لهذه الذهنية المتميزة فهو بمثابة "كروميل" المسلم، قد نذر نفسه للدفاع عن الدين، يقرأ القرآن ويستصدر منه أحكامه الدينية، ويكرس مبدأ الطاعة والولاء معا، فالكراهية الدينية التي يستوحيها من وجود فرنسا هي التي صنعته وكرست وجوده.

2) الهيمنة وسبل تحقيقها

2.1) لا مجال لتضييع الوقت إذا أردنا نسف قوة عبد القادر

إن الأمير عبد القادر يشكل خطرا داهما على فرنسا، فحكومته كانت أكثر مركزية وخفة وحركية وقوة من حكومة الأتراك، فبإمكانه أن يجند وبكل سهولة المزيد من المقاتلين وأن يرصد الأموال الوافرة.

إن أول شرط من شروط قوة النفوذ للأمير أن يكون له جيش أمين ومطاع، حيث لا يرتبط بالضرورة بالجيش الذي يمكن أن تحشده له القبائل، فضل هذا الجيش قد لا يقوى على قمع ثورة عارمة ولكنه يستطيع على الأقل أن يواجه المقاومات والثورات التي قد تندلع ضده كل يوم.

لقد تمكن الأمير عبد القادر من أن ينشئ هذا الجيش لنفسه بل إنه قد فعل أكثر من ذلك.

لقد استفاد من دروس الأتراك وأدرك بوضوح أن القضاء على عصيان العرب له قد لا يتأتى بالفروسية وحدها بل لابد من تدعيم صفوفه بسلاح المشاة، (كون هؤلاء السكان العرب هم من الرحل المقيمين على مقربة من الجبال، فإن ذلك مما يمكنهم من الانسحاب إلى الأماكن المستعصية على الفرسان ويحول دون متابعتهم والقضاء عليهم، وعليه فإن الوضعية تتطلب حشد الفرسان لمباغتتهم، والمشاة لتحقيق النصر والاستيلاء على الرجال والأغنام).

فالعرب يكنون الكراهية للمشاة، ومع ذلك فإن عبد القادر قد تمكن من تجنيد بعض الأعداء من الرجال وشكل منهم الكتائب[2] التي تحولت إلى فيالق[3] أوروبية التنظيم.

---

[1] هو عبد القادر نصر الدين الابن الرابع للشيخ محي الدين ابن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر بن خدة بن أحمد بن محمد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن أحمد بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن ادريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المكنى بن الحسن السبط بن فاطمة الزهراء بنت الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام. ولد في رجب 1222 هـ، الموافق 26 ماي 1807، ولد في قيطنة من قرى وهران بالغرب الجزائري، أدى فريضة الحج مع والده سنة 1241 هـ، زار بغداد ودمشق، ثم عاد إلى الجزائر واختير أميرا في الغرب الجزائري سنة 1832. انظر: نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، ط 02، بيروت، مؤسسة نويهض، الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، 1980، ص 103.

[2] جمع كتيبة (وحدة عسكرية): وحدة عسكرية مكونة من 04 إلى 06 سرايا وعدد أفرادها من 300 إلى 1000 فرد ويقودها عادة ضابط برتبة مقدم أو عقيد. انظر: www.wikipedia.org

[3] الفيلق وحدة عسكرية مشكلة من 02 إلى 05 فرق وعدد أفرادها من 20.000 إلى 45.000 فرد، ويقودها عادة ضابط برتبة لواء.

فبفضل جيشه تيسر لعبد القادر اقتطاع ضرائب منتظمة، وهو ما ساعده على رعاية جيشه ووضعه في حالة التأهب المستمر، وبفضل هذه القوة الدائمة، أعد المخازن ورصد الموارد.

إن الأمير عبد القادر كان يعامل العشائر مثلما كان يعامل ملوك فرنسا والملك شارل السابع[1] خصوصا إزاء الاقطاعية، إن ملوك فرنسا يستغلون كل تمرد لتعرية جانب كبار الاقطاعيين من ممتلكاتهم وإخضاع المزيد من الأقاليم لسلطة إدارتهم المباشرة، ويستغل الأمير عبد القادر نفس الأسلوب كي يتصدى للقبائل التي تقوم بإزعاجه وتفرض ضلاله عليه.

فالأمير عبد القادر حسب رأي طوكفيل بأخذه لنفس الغريزة بات يشتت ويحطم الأسر العريقة والقوية مع استحداث عائلات جديدة تستمد حكمها من سلطانه، فبذلك فهو لا يحارب فرنسا فقط بل يحارب كذلك الاستقراطية الوراثية والعتيقة لبلاده.

2.2) لا يجب اليأس مرة أخرى من إمكان القضاء على عبد القادر

لا يمكن لأحد من رجالات الحرب أو غيره تخيل القضاء على الأمير عبد القادر بضربة قوة السلاح وحده، فهو يعلم أنه لا يقوى أبدا على مواجهتهم في الساحة، فالسكان يفرون بكل يسر وسهولة أمام زحف العدو. وتستولي الجيوش على كل شيء وتحمله معها، فالحرب معهم إذن لا تنتهي أبدا بضربة قوية قاضية، وإذا حدث وأن تم القضاء على الأمير عبد القادر فإن ذلك لن يتم إلا بفضل مساعدة إحدى القبائل الخاضعة له اليوم، وينتج عن ذلك ضعف أو تفكك قوته دون القضاء عليها.

فبالرغم من أن الأمير عبد القادر نجح في تصفية العديد من الرجال الأقوياء لكن لا يزال بينهم عدد كبير يستفزهم ويحرجهم حكمه

هناك سبيلان اثنان كفيلان بإحداث انشقاق في صفوف العرب طالب طوكفيل الاستفادة منهم.

أ- كسب ثقة أعيانهم وذلك عن طريق الوعود الكاذبة.

ب- إرهاق حياة العشائر بالحروب الدائمة.

يقو طوكفيل أن التجارب من قبل أثبتت أن العرب ومهما كان تعصبهم شديد وروح وطنيتهم عالية إلا أن الطموح الفردي والجشع يظلان في قلوبهم وهذا يدفعهم إلى اتخاذ قرارات طائشة ومتعارضة مع ميولهم الطبيعية. فيمكن كسبهم وكسب ثقتهم بامتداح طموحاتهم وإما بتوزيع الأموال عليهم.

[1] ولد في 22 فبراير 1403 وتوفي في 22 يوليو عام 1461، أطلق عليه لقب المنتصر أو الحاكم الحسن، حصل على لقب كونت بونتيو لدى ولادته في عام 1403، كان الطفل الحادي عشر والابن الخامس لشارل السادس ملك فرنسا.

الأمير عبد القادر بات اليوم يقود جيشا موحدا قادرا على الانقضاض على الذين يشم فيهم رائحة الخيانة، فيأمل طوكفيل بحدوث انشقاق في صفوفه وذلك بتوفر شرطين:

أ- الشرط الأول: السيطرة على المواقع العسكرية التي توفر الحماية من هجمات الأمير عبد القادر.

ب- الشرط الثاني: توفير للقادة الراغبين في الانضمام إلى فرنسا دعم العشائر التي نفذ صبرها من بطش واستبداد عبد القادر لها.

3.2) أي نوع من الحرب يمكن بل يجب علينا القيام بها ضد العرب

يرى طوكفيل بأن كيفية القيام بهذه الحرب نتج عنها رأيين متناقضين وهو رافض لهما:

- القضاء على العرب لا يكون إلا بالحرب وعلى الطريقة التركية وهذا يعني قتل كل من يعترض سبيلهم، فطوكفيل يرفض مثل هذه الطريقة والاقتداء بالأتراك وتكرار ارتكاب المزيد من حماقتهم.

- حيث رفض التصرفات التي تقوم بها فرنسا كإحراق المحاصيل وإفراغ مخازن الحبوب وأسر رجال غير مسلحين إضافة إلى النساء والأطفال فكل هذه الأعمال لا تمكنهم من تحطيم قوة عبد القادر، بل لابد من دفع العشائر للتخلي عنه. ويجب استعمال جميع الوسائل التي تكدر حياة العشائر، وأنجح وسيلة للقضاء على القبائل هي حضر التجارة عليها، والمسلك الثاني من حيث الأهمية وبعد حظر التجارة هو تخريب البلاد.

- قانون الحرب يفرض القيام إما بإتلاف المحاصيل وقت جنيها، أو إقامة هجمات خاطفة هادفة إلى الاستحواذ على الرجال والقطعان فلا بد من إقامة هجومات عسكرية صغيرة وتزويدها بالعدة والعدد. ولابد من شن حملات عنيفة بين الحين والآخر فهي تبدو ضرورية من أجل:

أ- تبيين للعرب وجنودهم أنه لا توجد في البلاد حواجز قادرة على وقف زحفهم.

ب- تهديم ما هو شبيه بالتجمع السكاني الدائم ودون بقاء أو إقامة أية مدينة ضمن ممتلكات الأمير عبد القادر.

فعرب الأيالة لا يستطيعون الاستغناء عن المدن رغم تذوقهم الشديد لحياة الترحال، لابد لهم من بعض المؤسسات المستقرة.

4.2) الوسائل المستعملة لحرب بأقل كلفة وخسارة

لقد أثبتت التجربة أن ما يدمر الحياة في إفريقيا لا يرجع إلى الظروف المناخية فيها بقدر ما يرتبط بنمط الحياة فيها، وهذا مثلما حدث في مدينة سكيكدة، ففي سنة 1840، لم يمت من مجموع السكان في

نفس الظرف والزمن سوى 152. إنها تضم من بين صفوف سكان سكيكدة العجزة والنساء والأطفال بينما الجيش كان يتألف من جنود في مقتبل العمر، وكان السبب أن السكان ينامون في البيوت بينما الجنود يرقدون في أكواخ الخشب تخنقهم الحرارة الشديدة وتبللهم الأمطار، فمن البديهي إذن المسارعة إلى بناء ثكنات في كل موقع ينوون الاستيلاء عليه.

إن رصد مثل هذه المصاريف بات مستعجلا، ليس لأن الأمر يتعلق بحياة الجنود فقط بل لأن مثل هذه المصاريف تجنبهم المصاريف المعتبرة الأخرى، فالنفقات اليومية لجندي واحد في المستشفى هي 20 فرنكا، وخلال ذلك يستلزم استقدام جندي آخر من فرنسا ليخلفه، وبتكلفة باهظة.

هناك إجراء صحي تقدم به الجنرال لاموريسيير[1] ألا وهو تحسين التغذية بفرنكين اثنين ليكون هناك توفير.

استعباد جميع الجنود الذين لم تكن لديهم سنتين خدمة على الأقل بالإضافة إلى تكليف فرقة بإنشاء وحماية ثكنة عسكرية بجنوب فرنسا لمدة سنة أو سنتين فبذلك تكون وطأة الانتقال على الجنود أخف.

5.2) من هم الضباط المؤهلون لتولي القيادة

ضباط إفريقيا ليسوا وبكل تأكيد أقل عرضة لهذا الطموح وغيرهم من الضباط، فطموحات الضباط المقيمين في إفريقيا أشد حكمة وأكثر تواضعا مما هي عند الضباط القادمين من فرنسا ولعابري السبيل لإفريقيا في مدة قصيرة، فهم يتأنون ولا يستعجلون القيام بالعمليات العسكرية، وثانيا إقامتهم الدائمة في الجزائر فإنهم أقل اندفاعا إلى القيام بالحملات الخاطفة والبراقة.

حسب رأي طوكفيل يجب مضاعفة عدد الفيالق اللازمة للجزائر وبنسب معتبرة، بات أمرا ضروريا، أما فيما يخص الفرق القادمة من فرنسا فلا ينبغي أن تتمركز على طول ساحل إفريقيا بكاملها بل ستتألف من كتائب مختارة بعناية ضمن الجنود الأقوياء.

وكخلاصة لما مضى يمكن القول أن طوكفيل حث فرنسا على عدم التفكير جديا في مغادرة الجزائر باعتبار أن ذلك سيلحق بفرنسا مساوئ أمام منافستها بريطانيا وأن ذلك سيظهر فرنسا في العالم أنها انحنت أمام عجزها لقلة شجاعتها[2]. لذا فقد سعى من خلال هذا العمل لتوضيح وتبيان إيجابيات الاحتفاظ بالجزائر وعدم مغادرتها حيث يقول في هذا الصدد: **" أنه لو استطعنا الوصول إلى السيطرة بإحكام على شاطئ**

[1] ولد في نانت 1806، وتوفي في أميان 1865، اهتم بالرياضيات التي أخذها عن أستاذه أوغست كوث وتخرج كتقني 1826، وانخرط في الخدمة العسكرية فرقة المدرعات التحق بمدرسة سان سيمون وأصبح ملازما 1830. وتعلم اللغة العربية لاحتكاكه بفرقة الزواف بعدما أصبح يعمل بإفريقيا والتي بقي فيها 17 سنة، وأصبح عقيدا للكتيبة الثانية من فيلق الزواف وأصبح مديرا للمكتب العربي وأصبح قائدا على وهران 1840، وقد قدم وعد للأمير.

[2] طوكفيل، **نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان**، مصدر سابق، ص 33.

إفريقيا هذا وامتلكناه بيسر، فإن تأثيرنا في الشؤون العامة للعالم سيكون أكثر قوة وانتشارا "[1]. فبذلك تزيد قوة فرنسا.

دعى كذلك إلى احتلال الجزائر واستيطانها عن طريق الغزو واستخدام القوة في سبيل تحقيق ذلك. حيث قام بتوضيح وشرح هذه الفكرة الداعية إلى الاحتلال والاستيطان محذرا من ترك العرب وشأنهم **"إن تركنا العرب لأنفسهم. وتركناهم يتشكلون في قوة منتظمة في مؤخرتنا، فلا مستقبل إطلاقا لمبادرتنا في إفريقيا"**.[2]

وقد حذر في هذا الإطار من الأمير عبد القادر الذي قال فيه: " هو بطبيعة الحال عقل من أندر أنواع العقول وأخطرها "[3]، ينبغي عدم تركه يكمل مشروعه.

ولكي تحقق فرنسا أمنها بحسب طوكفيل فلا بد **" من إبقاء كل الموانئ في قبضتنا، وإبقاء الشاطئ كله تحت مراقبتنا، وإذا تركنا أية نقطة مهمة منه بين أيدي العرب فذلك يعني تهيئة مكان آمن وملجأ لأول قوة مسيحية سندخل في حرب معها "**.

دعى إلى القضاء على الأمير عبد القادر مستغلا في ذلك الانشقاق بين العرب، حيث دعى إلى:[4]

استمالة بعد القادة العرب التابعين للأمير عبد القادر وذلك بإعطائهم وعودا وهبات سخية.

وبالتالي يكون طوكفيل قد وظف سياسة **" فرق تسد "** لضرب الأمير عبد القادر وتفويض دعائم دولته واضعا مخططا لزرع بذور الشقاق وإحداث التفرقة بين الجزائريين مستغلا في ذلك بعض قادة القبائل الذين رفضوا الامتثال للأمير عبد القادر أو تآمروا عليه نظرا لشجعهم ولطموحاتهم الشخصية الضيقة التي زادت فرنسا في تنميتها والنفخ فيها، وفي هذا الصدد ينصح طوكفيل: **" ألا ييأس في استمالتهم إما بالنفخ في طموحهم، وإما بتوزيع المال عليهم "**[5].

كما يرى أن الوسيلة الوحيدة للتعامل مع عبد القادر هي الحرب وليست الديبلوماسية حيث يقول: **" أنا متأكد أنه كان ممكنا قبل أن تولد قوة عبد القادر وقبل أن تتشكل، اللجوء فقط إلى الاستفادة من شهوات العرب بمعارضتهم ببعضهم البعض، ومنع أن يكون أي منهم زعيم وإبقاؤهم كلهم تحت سيطرتنا بالضبط دون حرب "**.

---

[1] طوكفيل، مصدر سابق، ص 34.
[2] نفسه، ص 39.
[3] نفسه، ص 40.
[4] نفسه، ص 45.
[5] نفسه، ص ص 46 – 47.

فات الأول منذ وقت طويل اليوم عبد القادر على رأس جيش قوي وموحد دائما، ليس بالإمكان تدارك الوضع إلا بشرطين:

- الأول: احتلال مواقع عسكرية تتيح لنا الدفاع بفعالية عن الذين يلتحقون بنا.

- الثاني: إعطاء القادة الذين يرغبون في الاتحاد معنا دعم القبائل التي نفذ صبرها من نمط الحياة التي تفرضها عليهم سيطرة الأمير، ولا يتحقق هذا الشرطان إلا بالحرب.

ويمضي طوكفيل شارحا لفكرته الداعية للاحتلال والاستيطان وتفويض دعائم دولة الأمير عبد القادر، حيث يرى أنه لا يمكن تحقيق ذلك دون إحراق الغلال وإفراغ المطامير وأخيرا الاستيلاء على الرجال العزل من السلاح والنساء والأطفال.[1]

أما حجته في ذلك أن الحرب في الجزائر هي ليست ضد حكومة وإنما هي حرب ضد السكان، وبالتالي لا يخضع السكان إلا بضرب وحرق مصادر رزقهم الحقول وشل تجارتهم... فإن طوكفيل يدعو إلى نهب البلاد مدعيا " أن قانون الحرب يسمح لنا بنهب البلد وأنه يمكننا فعل ذلك إما بإتلاف المحاصيل في موسم الحصاد، وإما في كل وقت وذلك بالقيام بهجمات سريعة تسمى غارة والتي هدفها هو الاستيلاء على الرجال أو على القطعان.

كما ينبه طوكفيل من خطر إنشاء العرب المدن لأنها في نظره ستصبح نقاطا حربية مهمة "ف" كل الحملات التي يكون الهدف منها احتلال المدن القديمة أو الناشئة وتهديمها، تبدو لي مفيدة ".

فبناء على ما سبق فإن طوكفيل يرى أن الحرب والعرب فقط هي الكفيلة بتحقيق المشروع القائم على الاحتلال الكامل والاستيطان وأن ذلك لن يتحقق دون جيش قوي هو جيش إفريقيا الذي لا يخفي إعجابه به من جهة وتخوفه منه من جهة ثانية، أي أن طوكفيل يدعو إلى تكوين قوات خاصة تكون قاسية، صلبة، متكيفة مع مناخ إفريقيا على غرار قوات الزواف[2] أو الزواوة التي يساوي فيلق واحدة منها، فيلقين من فرنسا وهذا حتى يتفادى هذا الجيش ارتفاع في عدد المرضى والموتى بسبب التعب والمناخ.

أما ما يحدث هذا الجيش سواء فيلق الزواف أو جيش إفريقيا شديد المراس المتعود على الشدائد وقساوة المناخ، المقاوم للتعب والإعياء الشديدين في أواسط المجتمع الجزائري، فإن طوكفيل يدرجه تحت خانة "ضرورات مزعجة لابد منها"، ذلك أنه بحسبه "ينبغي اللجوء إلى كل الوسائل التي بإمكانها تدمير القبائل، لا أستثني سوى تلك التي لا تقبلها الإنسانية أو قانون الأمم ".[3]

[1] طوكفيل، مصدر سابق، ص ص 48 – 54.
[2] هذه التسمية أطلقت عليهم من الفرنسيين نسبة إلى الزواوة وفي هذه التسمية كثير من الخبث.
[3] نفسه، مصدر سابق، ص 48.

إذن كانت هذه أهم وجهات نظر طوكفيل التي كان هدفها فرض السيطرة التامة وتحقيق التهدئة الكاملة وإنجاح عملية الاستيطان.

3) الاستيطان[1]

1.3) هل يمكن القيام بالاستيطان قبل فرض الهيمنة وانتهاء الحرب

أكد طوكفيل على ضرورة إقامة الاستيطان قبل فرض الهيمنة وانتهاء الحرب، حيث يقول: **" لن أتردد لحظة في الإجابة عن ذلك بنعم! فلا أحد يدري متى تضع الحرب أوزارها "**.

فانتظار نهاية الحرب يعني تأجيل الشيء الرئيسي المطلوب تحقيقه إلى أجل غير مسمى، فأكد مرة أخرى بأنه لا يمكن تجاوز ساحل إفريقيا، ويجب إقامة مجموعات سكنية أوروبية في الجزائر، إذن لابد من الجمع بين الاستيطان والرحب معا، إن بسط النفوذ على قبائل نصف متوحشة وبدوية كالعشائر المحيطة بهم لا تكون إذن كاملة حتى يتسنى للمجموعات السكانية المتحضرة والمستقرة من العيش والإقامة بجانبها بدون خوف، فمن الضروري قبل الاستيطان اتخاذ بعض الإجراءات الكفيلة بضمان حمايتهم والدفاع عن أنفسهم.

من أية جهة للأيالة يبدأ الاستيطان

إن الجزائر تتألف من ثلاث مقاطعات كبرى، وهذا يتطلب أن يكون لكل واحدة منها تجربتها الاستيطانية الخاصة بها. فلا يمكن التقدم أمام الملأ ببرنامج ناقص. وهذا السياق تقدم السيد " لورانس" أمام البرلمان ليقول بأن الاستيطان يجب أن يشمل وبالتزامن ثلاث جهات: مقاطعة الغرب يجري في مستغانم، وفي الوسط يشمل أنحاء مدينة الجزائر وحول سكيكدة يشمل جهة الشرق كله.

طوكفيل أكد أنه من الحماقة التفكير في استيطان مستغانم، فالأراضي المحيطة بها في الواقع شديدة الخصوبة، ولكنها تقع على بعد خمسة أيام مشيا عن أهم موقع لهم ألا وهو وهران، بحيث لا يستطيعون اجتياز المجال الفاصل بين النقطتين. فمن جهة البحر يحمل ميناء مستغانم من المخاطر المحدقة ما يجعل إمكانية إنزال الجنود وتفريغ البضائع فيه صعبا جدا حتى في أشهر الصيف، علما بأنه يوجد على مقربة من مستغانم مرفأ جيد وهو أرزيو. لكن هذا الميناء يفتقر إلى الماء، أما عن الاستيطان في مقاطعة الغرب فالتربة هناك رديئة، فسيكون بإمكان السكان الريفيين الاحتماء على الأقل بالمدينة والميناء.

[1] فالاستيطان حسب طوكفيل في قوله: "... يجب مباشرة الاستيطان قبل إكمال السيطرة وإنهاء الحرب بحيث ينبغي أن أجعل الاستيطان والعرب يسيران معا إذا كان ذلك ممكنا. انظر عدي الهواري، **الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960**، تر: عبد الله جزيف، ط 01، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1983، ص 61.

فصحيح أنه توجد حول عنابة وسكيكدة أراضي غاية الخصوبة، وإنها تحيط بمدن معتبرة وتمتد على نقاط الساحل، وإن بدت وعرة المسلك نسبيا ولكنها تظل مع ذلك في متناول اليد، علاوة على السلم المتسبب على ربوع هذه المقاطعة، كما أن فطرة الناس فيها تبدو ألطف وأقل توحشا من بقية الجهات الأخرى.

لقد ذهب دو طوكفيل بأن أكثر ما يقلق ويعكر صفو حياة الأهالي وهم على حق في ذلك، لأنهم يرو كيف فرنسا تسلب الأراضي، وهذا السلوك لا يغضب المحرومين من ملكيتهم وحدهم. بل البلد بأكمله.

لقد ألف العرب ومنذ ثلاث قرون على الخضوع لحكم الأجانب فبمجرد ظهور جندي أوروبي إلى جانب الفلاح فإنهم يعتبرون ذلك انتزاعا لملكيتهم، فمن المرجح إذن أن تثور مقاطعة سكيكدة الهادئة حاليا لمجرد قيام المحراث الأوروبي بشق الأرض لفلاحتها، فمن الممكن في مثل هذه الحالة ألا تتم العملية الاستيطانية:

تحدث طوكفيل أيضا عن تصرفاتهم في إفريقيا بوضاعة وتفاهة، حيث أن معظم العلاقات التي أقاموها لم تجز دائما من صداقتهم إلا الشوك وسوء المصير، فمعظم العشائر وكل الرجال الذين وقفوا بجانبهم قد أهملوهم أو اعتدوا عليهم.

بمقتضى اتفاقية التافنة[1] فإن عبد القادر قد تحصل على أحسن الأراضي التي يمتلكها بنودويرز وأسمالة وهي نفس الاتفاقية التي وضعت الكوروغلي من بني زتون الصغيرة والبائسة تحت إمرته ولقد ذبحها بكاملها أمام أعيننا، فمثل هذا الحادث في مقاطعة سكيكدة سيشوس سمعتهم ويزعزع أسس سلطتهم فيجب العمل على تجنب الفوضى والتمرد وكل أنواع الهيجان الاجتماعي التي قد تندلع في مقاطعة سكيكدة التي تعتبر هي الجهة الأولى في إفريقيا التي تعلن فيها القبائل العربية اعترافها الفعلي بهيمنتها وانصياعها لدفع الضرائب لفرنسا.

إن عملية الاستيطان ضواحي سكيكدة يجب تأجيلها، وأن على فرنسا أن ترصد كامل مواردها وتركيز جميع عنايتها وتوجيهها صوب مقاطعة مدينة الجزائر وأنحاء العاصمة باعتبارها تشكل مركز ثقل قوة فرنسا في إفريقيا، وهي ستشكل أكبر سوق ومنفذ للمنتوجات الزراعية وإنها بالتالي ستستقطب أكبر عدد من المهرين وتشجعهم على الاستقرار بها. وفي مدينة الجزائر حدث كل ما يمكن أن يسببه الاستعمار في ذهن الأهالي من الإساءة إلى فرنسا حيث ابتدأت منها محاولات الاستعمار منذ عشر سنوات.

إن الحكومة في مدينة الجزائر سيئة، ولكنهم غالبا ما يجدونها في الجهات الأخرى حمقاء أو منبوذة أو مكروهة، فالمطلوب إذن بذل المزيد من الجهد في مدينة الجزائر خدمة للاستيطان.

---

[1] وهي المعاهدة التي أبرمها الأمير عبد القادر مع بيجو في 23 ماي 1837 ودامت سنتين 1837-1839 تمية إلى واد التافنة وهو نهر كبير ينحدر من جبال تلمسان ويصب في البحر الأبيض المتوسط على شواطئ بني صاف. أنظر: مناصرية يوسف. **مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832-1847** الجزائر: طبعة خاصة وزارة المجاهدين 1990، ص **72.**

3-3- في الظروف المادية للنجاح

إن الشرط المادي الأول لهذا النجاح هو إيجاد منطقة آمنة حول الجزائر المدينة وأحسن وسيلة لتحقيق ذلك بات كما يبدو تشكل في جميع الأحوال عقبة دائمة.

إقامة حواجز لتفادي الصعوبات المحيطة بالأراضي الاولى الموجهة لاستقبال المهرين، فالجنرال " بيرتوا" يريد أن يبدأ بحفر خندقه على طول خط صاعد من البحر عبر القليعة وصولا إلى البليدة ليعرج بعد ذلك على مدينة " بوفاريك" لينتهي إلى وادي الحراش ويستفد عليه على مقربة من مصب هذا الوادي.

ومن مزايا هذا المخطط أنه تغطية كاملة للمنطقة الجبلية والجزء الخصيب من المتيجة والممتدة من جبل صوب البليدة.

أما عيوبه فهي:

1- أنه يعزل الأراضي الأكثر خصوبة في المتيجة

2- أنه يضم في المقابل إما كامل الجهة المستنقعة، وإما الجهة الجرداء من السهل، علاوة على أنه ينوي إنجاز مثل هذا المشروع عبر أراضي وعرة المراس للعمال .

وكان للمستوطنين مشروعا آخر ينص على الانطلاق من البليدة والتوجه بمحاذاة قاعدة جبل الأطلس صوب الحميز[1] الذي سيتشكل فيما بعد حاجزا طبيعيا منيعا، إن هذا المخطط سيزيد أربة أميال من طول الحاجز ولكنه سيمكن من تغطية الجزء الخصب من المتيجة.

ب- تنقية السهل

ركز طوكفيل على ضرورة التنظيف والتنقية إذا أرادوا تجاوز الجبل واحتلال متيجة، فالمستنقعات التي تلوث السهل أتقع عند أسهل الجبل الذي يحول دون تسرب المياه المتساقطة لترتمي في البحر. وهذا ما يجبر فرنسا على الدوران يمينا وشمال حول الأراضي تكون قليلة الانحدار وتبطئ الحياة محبوسة.

ج- تدعيم الملكية

إن الجزء الأعظم من سهل متيجة تمتلكه العشائر العربية التي تحولت وانظمت اليوم طوعا أو كرها إلى صف عبد القادر، ويتقين على الإدارة وقد باتت مالكة لهذه الأرض، ألا تتخلى عنها حتى في

[1] وادي الحميز هو أحد الوديان الأكثر أهمية بالنسبة لولاية الجزائر على طول 554 كيلو مترا إلى الشرق من الجزائر العاصمة ويقع معية بالتحديد ما بين بلدية برج الكيفان وبلدية برج البحري، وهو أطول الوديان العاصمية والأكثر تدفقا، ينبع من جبال الأطلس التلي والتيطري في جوار بلدية فج الحوضين بولاية المدية ليمر عبر ولايات البويرة، البليدة وبومرداس والجزائر ليصب مياهه في البحر الأبيض المتوسط.

حالة السلم. وعلى الحكومة أن تتحصل وبأية طريقة كانت على جميع الأراضي الكائنة إما في نتيجة وإما في الجبل. والتي يمتلكها الموريسك دون العرب، ويتم ذلك إما بالتراضي وإما بالقوة، مع تعويضهم بسخاء ذلك أن الموريسك أهل سجية مسالمة ويستحقون كل التقدير إنهم قد يعيقون سير جملة فرنسا ولا يمكن الاستفادة منهم في شيء لعدم قدرتهم على التوسط بينهم وبين العرب.

إن اغتصاب ملكية الأهالي لا تشكل أيدا عقبة كأداء في وجه المشروع الاستيطاني وتبقى المشكلة الكبرى متعلقة بالملاك الأوروبيين الذي يعقدون وحدهم المسألة أكثر إنها مساحات شاسعة ولكن يمتلكها الاوربيون الذين اشتروها عن الأهالي الذين لا يفلحون أراضيهم أبدا ولا يبيعونها قط للفلاحين الأوربيون ولهذا بسبب:

إن الغالبية منهم وهم من العارضين المدركين لقيمة الأرض لا يبيعونها لاعتقادهم أنه سيأتي حين من الدهر قد يدرون منها أرباحا أوفر مما باعوها الآن، كما أن العديد منهم لا يمكنهم فعلا وبأي حال أن يبيعوا ما ملكت أيديهم إما لأن الملكية التي يملكونها غير موثقة وإما لان قانون البائع بات محل شبهة.

اقترح دو طوكفيل جملة من الاجراءات الضرورية لتجنب فوضى الملكية العارمة:

اتخاذ إجراء عام وإنشاء محكمة استعجال قصد تثبيت الملكية ورسم حدودها وإذا تم ذلك ووجد مالك ثابت وملكية قابلة للتمليك فلا يبقى بعد ذلك إلا الإعلان المشهر بأن المالك الذي لا يفلح أرضه في أجال محددة، فإن هذه الأرض تضج ملكا للدولة تستولي عليها بعد تعويض ثمن الشراء فهذه كلها إجراءات عنيفة وغير قانونية ولكنها الحل الوحيد الذي وجده طوكفيل للخروج من الوصيفة التي تورطوا فيها.

د- إنشاء القرى

بعد أن أصبحت الحكومة صاحبة الحصة الكبرى من الأرض التي تحصلت عليها إما عن طريق شرائها أو بقوة قانون الغزو أو بالبيع الجبري فبقي كيفية التصرف مع هذه الأرض وكيف يمكن تعميرها.

في البداية يؤكد طوكفيل على ضرورة عدم الموافقة على توزع السكان في الريف وإجبارهم على الإقامة في قرى تتحمل الدولة مصاريف تحصينها وتختار بنفسها ضابطا للدفاع عنها، وندد بضرورة الإجماع على هذا الرأي لأن هذا الموضوع تقدير بأكثر من نظرية، فلا شيء من بين هذه النظريات المقدمة ما يؤكد على هذه الجاذبية القوية العاملة على دفع العقل الإنساني إلى تقويض أسس الحياة الفردية واستبدال المجتمع ككل بكائن واحد. فهذه النزعة أنتجت في فرنسا النظرية الفورويزنية Fourierienne والسانسيمونية Saint-simonsime بل أن هذه النزعة قد اشتملت وعلى غفلة من أمرهم كلا من الأب

لاندمان والجنرال بيجو.[1] وغيرهما الكثير ممن كتبوا أو تحدثوا عن الاستيطان. فكلهم ينزع إلى إدراج الجزائر في تجمعات حقيقية مشتركة قائمة على أساس إما الحكم الديني أو العسكري أو الاقتصادي وبعبارة أخرى فإن الجميع يتطلع إلى إقامة تجمعات سكانية صغيرة تنتفي فيها الملكية وتذوب الحياة الفردية ضمن المجموع العام.

فقط كان الفرق بين مخطط لاندمان ومخطط بيجو كالتالي:

أن الأول يجعل من الملكية والحياة الجماعية وصفية دائمة، بينما الثاني اعتبره طوكفيل مرحلة عابرة فقط. فأعضاء المستوطنة العسكرية سيبدأون حياتهم في المستوطنة بالفلاحة المشتركة وفق وجهة محددة ومشتركة ولكنهم وبعد سنين يجب أن يصبحوا ملاكا أحرار.

إن جميع هذه المخططات يمكن أن تنجح. ولربما قد يكون بإمكان القس لاندمان أن يقنع بعض العائلات الألمانية بالمجيء للالتفاف حوله ويوحدها بحميته الدينية المعهودة في حين أن الجنرال بيجو قد يجد ضمنن أفراد جيشه بعض الجنود القدامى القابلين لتشكيل مستوطنة أو مستوطنين.

ولكن التوهم بإمكان تعمير البلاد بالاعتماد على إحدى هاتين الوسيلتين الاستثنائيتين يبقى مجرد حلم اليقظة على حسب دو طوكفيل فجميع هذه المخططات المجتمعية الشيقة البناء تفتقر إلى شرط النجاح الأول الرجال القادرين على اختيار فعاليتها.

بخصوص المستوطنات العسكرية حسب طوكفيل أنه لا يتعين تشكيلها في المرحلة الأولى على الأقل إلا من الرجال العزاب إذ لا يأتي الاستيطان بالأفراد بل بالعائلات فهنا تأخذ بعين الاعتبار أوساط العائلات التي نشأ فيها الأفراد المجندون وارتباطهم الدائم بأرض ميلادهم مع كراهيتهم لهول الحرب والقيادة والانضباط العسكري الذي بات يشكل شيئا فشيئا أساس طباعهم، كل ذلك قد تحول دون العثور ضمن صفوف الجنود على من يرغب في البقاء هنا بعد أداء الخدمة العسكرية لفلاحة الأرض بطريقة عسكرية ففي هذه الحالة قد لا يجيدون أحد أو يجيدون القليل من الأعوان فلا تقام المستوطنات العسكرية إلا بشرط استقدام سكان جدد وإجبارهم على البقاء فيها

- أما المستوطنات الدينية أو الاقتصادية التي لا هم لها ولا غاية إلا مجرد العيش في كنف الملكية المشاعة، فمن المستحيل إمكانية العثور على أعداد كبيرة من الرجال يتركون أوطانهم ويذهبون ليعرضوا أنفسهم للخطر

[1] ولد في ليموج بفرنسا في 15 أكتوبر 1771م، عين حاكما عاما للجزائر منذ 19 ديسمبر 1840م منح وسام الفرقة الشرقية في 09 أفريل 1843 مات في باريس 10 جوان 1849م، انظر: محمد عيساوي، **الجرائم الفرنسية بالجزائر أثناء الحكم العسكري 1830 – 1871**، د. ط، دار كنوز الحكمة، الجزائر، 2011م، ص 166.

- أما عن دور الظروف الخاصة المحيطة بمستوطناتنا التي تستلزم تدخل الإدارة فتمثل هذا الدور فيما يلي:

- على الإدارة أن تقوم بعملية مسح شاملة ودقيقة للبلد المراد استيطانه.

- يتعين عليها أن تحدد مواقع القرى تحصينها وتسليحها ورسم حدودها: بناء، ماء، مدرسة ....

- وضع على رأس ميليشاتهم ضابط قادر على تلقين السكان بعض العادات والتصرفات العسكرية وأن يتمكن من قيادتهم عن بعد.

- كذلك يتعين على الإدارة أن تتعلى بنفسها أو بواسطة الشركات الاستيطانية تزويد المهرين إما بالحيوانات وإما بالعتاد والمواد الغذائية بهدف تيسير وضمان قيام الاستيطان.

4-3 يجب إقامة جسر من ذهب للقادمين إلى إفريقيا

- ولتحقيق ذلك يجب على فرنسا أن تعيش بأقل التكاليف وإن تبيع المنتجات بيسر وغلاء مع تخفيض الأسعار إلى درجة الحصول وبأثمان بخسة حتى عند الأجانب على أهم الأشياء السارة والمفيدة للحياة فعلى فرنسا فتح أبوابها على مصارعيها في وجه جميع منتجات الجزائر، خاصة منها منتجات الصناعة الاستعمارية دون منتوج صناعة الأهالي، وكمثال على ذلك تفضيل شراء التبغ في الجزائر حيث ينمو جيدا وبنوعية متميزة عوض استيراده من أمريكا إن طعم الربح اليسير والوافر وما يضمنه من الرخاء سرعان ما يحول متيجة والجبل إلى قبلة للمزيد المعمرين.

3-5- في المؤسسات الاجتماعية والسياسية وفي نمط الحكومة لإقامة الاستيطان وتأمينه:

إن حكومة الجزائر تواجه عدة مآخذ متضاربة نادرا ما تجتمع في سلطة واحدة، إنها حكومة عنيفة، متعسفة، متجبرة، وفي نفس الوقت غبية، ضعيفة وعاجزة، فالحكومة متعسفة ومتجبرة لانعدام الإجراءات القانونية الكفيلة بحماية المواطنين من تصرفات السلطة المركزية ويعود سبب هذا الضعف والعجز:

- السبب الأول يرجع إلى غياب تمركز السلطة في الجزائر المدينة، فكل رئيس مصلحة فيها بات مستقلا عن غيره، يتصرف بمفرده في فلكه الخاص.

- صحيح أنه يوجد حاكم فوق جميع رؤساء المصالح والذي يتوجب عليه ومن حقه أن يدفع بهم جميعا إلى الطاعة والانقياد لأوامره لكن هذا الحاكم هو جنرال في الجيش لا يفقه في قواعد العمل الإداري المدني إضافة إلى انشغاله الدائم بأعمال الحرب، إذن ينبغي أن يكون للإدارة المدنية في الجزائر رئيس، وأن يكون هذا الحاكم إنسان مقتدرا على إشراك مختلف أعوان هذه الإدارة لإنجاز إما مشاريعه هو أو التي يضعها الحاكم العام.

- أما السبب الثاني فيرجع إلى التمركز العبثي القائم بخصوص الشؤون الجزائرية نفسها في باريس، فكيف يمكن إقامة سلطة مركزية في إفريقيا إذا كان أعوان الإدارة المدنية الخاضعين لها لا يتصرفون في كل صغيرة وكبيرة إلا بإذن من السلطة الحاكمة المقيمة بباريس.

5-3) الضمانات التي تعطى للمواطنين

هناك فكرة بسيطة بين الناس بخصوص الاستيطان مفادها أن الاستيلاء على مجموعة من السكان ونقلها من مكان لأخر، وذلك لا يتم بدون استدراجهم وترغيبيهم في القدوم إلى الجزائر فدعوة الأوربيون إلى ترك وطنهم وهم سعداء ويتمتعون بالعديد من الحقوق والممتلكات العزيزة عليهم ليس شيئا هينا فعملية استقدام السكان في مثل هذا البلد لا تستقر بدون تقديم فرص كبرى بالانتفاء ويجب ثانيا أن يجدوا هناك مجتمعا متلائما متطابقا مع عاداتهم وتقاليدهم.

فالفرنسي في بلاده يشارك في تسيير الشؤون العامة بصفة مباشرة من خلال الانتخابات وبصفة غير مباشرة عن طريق الصحافة، ثم إنه لا يعتقل في بلاده إلا بأمر صادر عن قاضي مستقل ويودع الحبس الاحتياطي بقرار من محكمة مستقلة.

إن المثابر وحرية الصحافة، المحاكم الشعبية وحقا لانتخاب لا توجد قط في إفريقيا فهذه الأمور يجب التسليم بذلك، لقد قامت فرنسا بإنشاء مجلس بلدي تولت السلطة تعيين أعضائه ولكن ألغته ووضعت مصادر الواردات المحلية وتصريف هذه الأموال في قبضة خزينة مركزية بباريس.

إن السلطة العسكرية تتخذ من حين لآخر إجراءات عنيفة وبالغة القوة فعلى حسب طوكفيل أن أعنف حكم في الجزائر وأكثره سوءا هو الحكم المدني، كذلك إلى جانب مساوئ مؤسسات الجزائر نجد عيوب الرجال إذن إن الإدارة المدنية في الجزائر هي على العموم سيئة التشكيل.

لقد استحدثت فرنسا في الجزائر عدة مصالح عمومية كان يفترض أن يسندها مجتمع كامل التنظيم ومتقدم بينما هي في الواقع لا تجد في مثل هذا المجتمع الصغير والناشئ أي مجال لتطبيقاتها الميدانية إلا بصعوبة كبيرة جدا إن وضعية الإدارة المدنية في الجزائر وضعية مزيفة ومذلولة فهي مقهورة ومغمورة بفعل السلطة العسكرية من جهة ويفعل تمركز السلطة التام بباريس من جهة أخرى فالجزائر إذن هو البلد الذي لا يوفر أي نوع من الضمانات أو الحريات الكبرى المتوفرة في أوروبا والتي تصادف فيها وبالمقابل كل العراقيل التجارية والمالية والإدارية.

إن الأمور في الجزائر مرتبة بكيفية تجعل سير العدالة الجنائية يظل بكامله تقريبا في قبضة النيابة العامة فالمدعي العام يمكنه دون قاضي التحقيق إيقاف وحبس المتهمين ويستطيع تمديد فترة التحقيق كما

يشاء أو إلغاء الحكم على المتهمين إذ شاء أو تعجيل الحكم وهكذا فإن الفرنسي القادم إلى إفريقيا لا يحرم فحسب من ضمانات هيئة المحلفين والقضاة الراسخين بل وكذلك من عدة ضمانات أخرى إذ قد يوقف بدون أي أمر قضائي ويعتقل بدون إمكان الطعن في الحكم الصادر، كذلك بإمكان الحاكم العام أن يحتجزه وفق هواه وأن يزج به في أول وسيلة للنقل ليبعده عن المستعمرة في ظرف أربعة أشهر وعشرين ساعة.

4- الاصلاحات الضرورية

4-1- التعديلات التي يجب إضافتها للتشريع

من أهم التغييرات الضرورية لتعديل هذا التشريع هي أن تكون التشريعات معروفة لدى الجميع وبصفة مسبقة وأن تكون ديمومتها عماد بقائها ونجاحها فلن تستقر الأمور ما لم ترسم السلطة التشريعية لنفسها نمط وحدود مختلف السلطات التي يجب أن تسر المستعمرة فالقانون في فرنسا يظل متقلب.

تحدث طوكفيل عن القوانين السيادية التي لا تمارسها إلا السلطات العليا الوطنية حيث أنه لم يعارض على استمرار فكرة الحالة الطارئة، إن القرار المتخذ في الحالة الطارئة لابد أن تصادق عليه الحكومة ويجب أن تحدد آجال سريان فعله سيصبح معلن إذا لم يصادق عليه من طرف الجهات المؤهلة.

ووصل طوكفيل اقتراحات بخصوص تسيير الإدارة كالتقليص من الصلاحيات الحكومية للحاكم العام ووسع من صلاحياته الإدارية وبهذا ستصبح إدارته أكثر انضباط وقوة وأقل تعسفا وأكثر نجاعة وحقوق المواطنين تغدو مضمونة أكثر والقوة العمومية أشد حزما وبعد مسألة تحديد مكانة الحكومة المركزية في إدارة المستوطنة فإن القضية الكبرى تدور حول معرفة كيف يكون ممثل الحكومة المركزية.

إن تكييف مكاتب وزارة الحرب بإدارة شؤون الحكومة لإفريقيا يعني أن الأمور ستبقى سيئة التسيير يعني من البديهي أن الناس الأقل أهلية للتنظيم بل والغير قادرين على وضع تصور جيد لمجتمع مدني ومجتمع مدني استيطاني هم أعوان وزارة الحرب دون غيرهم، علاوة على أن المسؤولية عن أخطائهم لا يتحملها أحد فمهما كانت قضية الجزائر مهمة فإنها لا تشكل إلا عنصرا بسيط ضمن المجموع الكلي لقطاع وزارة الحرب التاسع.

ينبغي أن تتمركز سلطات حكومة الجزائر بين أيدي موظف مسؤول، وأن توكل إدارة الجزائر لموظف واحد مكلف بشحذ وتحريك الهمم المشتركة لجميع رؤساء المصالح.

الإدارة المدنية تتركب من عنصرين تحديد المسائل الدقيقة والخاصة وبمعنى الكلمة من حيث هي حالات استثنائية ثم تحديد القواعد العامة ذات طابع الإلزامي إما للموظفين وإما للمواطنين، وهذه القواعد هي في الواقع شبه قوانين حيث تتلامس السلطة التشريعية والقوة الإدارية وتتطابق في هذا الجانب بالذات،

فإن أهم هذه القواعد المتعلقة بالجزائر يتعين اصدراها عن طريق الإدارة المركزية وليس عن طريق حاكم المستوطنة فبعضها يصدر عن السلطة الملكية وأخرى من إنشاء المجالس ولكن من المؤكد أن أكبر عدد منها يظل من صلاحيات السلطة الاستيطانية ففي جميع بلدان العالم توضع إلى جانب السلطة التنفيذية هيئات مكلفة بتقديم جدوى هذه التنظيمات وتحضير أو مراقبة صياغتها وتلك هي إحدى الوظائف السامية لمجلس الدولة في فرنسا ومثل هذا الشيء يغدو ضروريا في بلد توكل فيه الإدارة المدنية للسلطة العسكرية.

ولذلك يوضع إلى جانب الحاكم العام مجلس يستشيره وجوبا في بعض الحالات ولكن المجلس الحالي هذا يتألف بكامله من رؤساء المصالح وهذا معناه أنه لا يقدم أي ضمان كان، فمن الضروري أن يوضع إلى جانب هذه السلطة العسكرية المكلفة باستصدار القوانين المدنية الحقيقية مجلس يمكنها فعلا من توجيه هذه القوانين واحتوائها وهذا يعني أن يكون متألف من أفراد لا يشغلون إي نشاط أو أية وظيفة معينة وأن يكونوا مستقلين عن أي انتماء.

2-4 الضمانات الممنوحة للمواطنين

هذه هي الكيفية التي رأها طوكفيل مناسبة لوضع أسس الحكم في الجزائر أما بخصوص طبيعة الضمانات التي يستحسن توفيرها للمواطنين فكانت وجهة نظرته كالتالي:

- عدم المبالغة بصفة لا محدودة في القول بأن الوضعية الحالية في إفريقيا تفرض علينا القيام بأعمال جد مخالفة لما يجري في فرنسا فالموظفون الموفدون إلى الجزائر يطالبون بصلاحيات استثنائية جدا لأن ذلك يناسبهم كثيرا

-إن ما يجعل الناس الطبيعيين بأن كل شيء في الجزائر يجب أن يكون مختلفا جدا عما هو موجود في فرنسا وذلك يرجع إلى سببين:

1- حيث أن سكان المستعمرة هم من العرب ومن الأوروبيين، من المسلمين والمسيحيين فإن كل ذلك مما يحول دون إمكان إدارة شؤون جميع هؤلاء السكان بنفس الطريقة.

2- بالنظر إلى الوضعية الخطيرة للمستعمر وهي محاطة بأعداء مسلحين ويتعين محاربتهم باستمرار فمن الضروري أن توكل إلى الحكومة إصلاحات استثنائية وغير عادية والتي يمكن الاستفتاء عنها في فرنسا، فالاعتراض الأول لا يقدمه إلا الذين لم يزوروا إفريقيا أما الذين ترددوا عليها كثيرا فهم يدركون جيدا أن المجتمع المسلم والمسيحي لا تربطهما أية علاقة كانت أما الاعتراض الثاني المتذرع بالمخاطر الداخلية المحدقة بالمستوطنة إذا لم تتسلح الحكومة بقوانين جد استثنائية وجد متعسفة فإنه اعتراض سخيف.

- ثم انتقل طوكفيل فيما بعد إلى أهم الاستثناءات الضرورية التي يجب أن إدراجها في المؤسسات السياسية في إفريقيا فالنظام الانتخابي وحرية الصحافة اللجان المحلفة كل هذه المؤسسات ليست ضرورية في الطفولة المبكرة للمجتمعات وفي المقابل فإن بعض الحريات المحظورة في فرنسا حرية التعليم.

لقد طالب المعمرون بإنشاء نوع من مجلس استيطاني تتشكل أعضاؤه من بين صفوفهم وغير المنتخبين يكون من اختيار الحاكم مع إمكان الاستئناس في بعض الحالات بمطالبهم مثلما يجري في فرنسا بخصوص مجالس المعامل والتجارة يقال أن الماريشال فالي Valée[1] قد اعتزم فور عودته إلى السلطة تنظيم هذا النوع من التمثيل غير المباشر ويبقى من المستحسن العمل على استكمال مثل هذا المشروع لأن وجود مثل هذه المجالس من شأنه تهدئة المخاوف الشديدة القائمة بحدة والقضاء على العديد من الأحكام المسبقة.

إنه من الخطأ القول بأن صلاحيات البلديات في الجزائر يجب أن تكون أضيق مما عليه في فرنسا بل العكس يجب أن تكون هنا أوسع فالبلدية القوية والنشطة هي في نفس الوقت ضرورية وأقل خطرا هنا من أي مكان آخر إنها أكثر ضرورية لأن ظروف الحياة الاجتماعية لم تتوفر بعد هنا وهي أقل خطرا لأن حرية البلدية لا يخشى منها أن تتحول إلى عمل سياسي فالظروف العامة السائدة حاليا بالجزائر مع قلة عدد المعمرين و عزائم التامة وقوة شوكة الجيش والسيطرة المحتومة لذهنية وحكومة العسكر كل ذلك سيدعم السلطة وبصفة دائمة وأن يعتمد في كل بلدية مندوب عن السلطة مكلف بالسهر على تطبيق هذه الواجبات.

- قد صاغ طوكفيل وسائل سماها وسائل العلاج نذكر منها:

- يجب إلغاء أو على الأقل تحديد من نطاق هذا الحق الغريب الممنوح الحاكم لطرد من يشاء من المستوطنة.

- إلزام الحاكم بتبرير قرار المتخذ للطرد ونشره في جريدة مونتوردي فرانس.

-إلغاء التبعات الناتجة عن ذلك ما لم يصدر قرار وزاري في مدة معلومة للمصادقة على هذا الإجراء الذي تقوم به الشرطة العليا.

المطلب الرابع: تقرير عن الجزائر

1- موضوع وخطة تقرير

تقرير كتبه طوكفيل عن مشروع القانون المتعلق بالقروض غير العادية المطلوبة للجزائر نشر في Le Moniteur Universel ملحقا بجلسة الاثنين 24 ماي 1841.

كانت اللجنة مشكلة من السادة: ديفور، مورني، آلارد، دوريزون، تريسي، كورسال، لاستايري، شنايدر، أودينو، طوكفيل، ديجوبيز، بوبلاي، لاقيش، بشاميل شاسلو، لوبا، بومون، أبراهام دييوا، في

[1] 1773-1846 هو قائد المدفعية عند دخول مدينة قسنطينة واحتلالها يوم 13 أكتوبر 1837.

الثامن مارس اختير ديفور رئيس للجنة وطوكفيل مقررا، وقد تأسى طوكفيل بهذا لأنه كان في سباق مع بومون، ومع ذلك رأى أنه وفق في طريقه.[1]

من أهم ما جاء في هذا التقرير على حسب قول طوكفيل، أن الغرفة هذا العام وعلى غير عادتها شكلت هذه السنة لجنة الميزانيات الاستثنائية لإفريقيا، تتألف من 18 عضوا برلمانيا عوض الثمانية المقررة.

لم يحدث قط أن تقلصت المخاطر المحدقة بالمستعمرات الخاصة بفرنسا في إفريقيا كما هو في الوقت الحالي: استسلام الجزء الأكبر من أهل البلد أثر حرب مسيرة بحكمة ونبوغ، علاقات صداقة أو على الأقل علاقات هادئة مع جيران فرنسا من الأمراء والمسلمين، كف الأمير عبد القادر عن القيام بأعمال بربرية، تشهد على ضعفه أكثر مما تشهد على فظاظته، بلاد القبائل مستعدة للاعتراف بإمبراطورية فرنسا، المحرض على التمرد الأخير انتهى إلى تسليم نفسه، وطلب العفو من فرنسا، وكرمها بعدما حاول بلا جدوى مقاومة قوتها.[2]

2- الهيمنة على الأهالي وحكمهم

تحدث طوكفيل عن الهيمنة التي فرضتها فرنسا على أراضي الإيالة القديمة وهل كانت مفيدة لفرنسا، فإن العديد من أعضاء لجنة البرلمان قد ساندوا وبشدة الموقف السلبي لهذا الرأي، فهو ينادي بضرورة التمسك بالهيمنة على إفريقيا بكل قوة وعزم، ويجب توزيع سكان الأهالي من منظور الهيمنة إلى ثلاث مجموعات رئيسية:[3]

ستقام المجموعة الأولى في الرقعة الشاسعة المعروفة باسم الصحراء الصغرى والممتدة جنوبا من نهاية الأراضي الفلاحية إلى بداية الصحراء.

2.1) الصحراء الصغرى

من المعلوم أن سكان هذه الجهة أكثر ترحالا واستقرار من أغلبية أهالي الجزائر يجتازون سنويا مسافات شاسعة بدون الاعتراف ولا التقييد بأي إقليم كان أما الآخرون على عكس من ذلك يستقرون في الواحات القائمة على نظام الملكية الفردية المحددة المزروعة والمبنية، فإن فرق الجيش الفرنسي لم تزر قط أراضي هذه الصحراء ولم تستولي لحد الآن على أي نقطة كانت، فاقترح طوكفيل التحكم في السكان القاطنين بها من خلال مسؤولين من الأهالي والاكتفاء بمراقبتهم عن بعد.

---

[1] طوكفيل، **كتاب نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان**، مصدر سابق، ص 110.
[2] نفسه، ص 110.
[3] طوكفيل، **كتابات طوكفيل عن الجزائر**، مصدر سابق، ص ص 305-307.

2.2) منطقة القبائل المستقرة

في مقابل الصحراء الصغرى وفي الجبال المجانبة للبحر يقيموا القبائل مستقرون فلم تتمكن فرنسا من اجتياز أراضيهم، ولكن بحكم تواجد مؤسساتها المحاصرة لهم من جميع الجهات بسبب المضايقات التي تتعرض لها صناعتهم فإنهم باتوا يتأثرون بفرنسا على حسب قول طوكفيل.

2.3) التل

أما بقية سكان الجزائر من العرب والبربر، المنتشرين في السهول أو في جبال التل بدءا من الحدود مع المغرب إلى تخوم تونس، فهي تشكل المجموعة الثالثة من السكان، ففي هذا الجزء أقيمت المدن التي تعمرها كبريات العشائر، تتقاطع فيها أخصب الأراضي وأوفرها سقيا وأكثرها قابلية للعمران، وفيها جرت كبريات الحملات العسكرية واندلعت فيها أشد المعارك.

2.4) تقسيم التل إلى منطقتين متميزتين

إن هيمنة فرنسا شرقا كانت أقل اكتمالا وإلى حد بعيد ما هي عليه غربا، ولكنها تبدو أهدأ وأضمن ما تكون، ففرنسا تصرفت في شؤون الأهالي عن بعد بصفة غير ملزمة، فالعديد من الأهالي المسؤولين باتوا من الاقطاعين أكثر مما هم أعوان فرنسا، وحكمها لهم أصبح أقل تعسفا وأقل عرضة للخطر، فجيش يتألف من عشرين إلى اثنين وعشرين ألف جندي أصبح كافيا لحراسة وتأمين هذا الجزء من البلد الذي يشكل مع ذلك نصف كامل الأيالة القديمة.

3- لماذا يجب أصلا الحد من توسع الاحتلال

يؤكد طوكفيل أن فرنسا اكتفت بلفت انتباه الغرفة (البرلمان) إلى أن الجزائر تمثل هذه الظاهرة الغريبة لبلد منقسم إلى منطقتين مختلفتين إحداهما عن الأخرى أشد الاختلاف مع توحدها المطلق فيما بينهما لا انفكاك بينهما، فالصحراء الصغرى تضم من جهتها الرعاة البدو، والتل من جانبه يعمره الفلاحون المستقرون نسبيا، والجميع يعلم أن الصحراء الصغرى لا تستقيم لها الحياة إذا صدت أبواب التل في وجهها، فلماذا تحتل فرنسا الصحراء ولماذا يتعين عليها أن تفعل هنا أكثر مما قام به الأتراك الذين سادوا بهذه الكيفية على المنطقة خلال ثلاثة مائة سنة فمن مصلحة الاستيطان أن لا نلزم نفسها بالإقامة فيها طالما أنها لا تنوي تثبيت سكنات أوروبية في هذه البقاع.

4- كيف توصلنا إلى معرفة واتخاذ أحسن الوسائل لاحتلال البلد

بهذا الصدد يمكن القول بأن حرب إفريقيا أصبحت علما ذا قوانين وفي متناول الجميع وأن بإمكان كل واحد القيام بتطبيقها بكل تأكيد، فأعظم خدمة جليلة قدمها بيجو هي توسيعه من نظام هذا العلم الجديد وتحسين أدائه حتى أصبحت ظاهرة عيان للجميع، وقد علمتهم التجربة ما هي الوسائل التي يتعين الاستعانة بها لدحض الشعب العربي وهكذا قد وصلوا إلى نتيجة مفادها أن السكان الذين ظلوا يصدون تقدم

امبراطورية فرنسا لم يكونوا قط من الرحل البدو كما ساد الاعتقاد بين الجميع بل هم مجرد سكان أكثر حركية من سكان أوروبا ليس إلا.

فكل واحدة من تلك المجموعات السكانية أراضيها المحددة بدقة ولا تبتعد عنها إلا بصعوبة وعناء لكونها سرعان ما تضطر للعودة إلى حيث انطلقت، فما دام احتلال بيوت السكان متعذرا فلم لا يكون بمقدور فرنسا الاستحواذ على المحاصيل وخطف قطعان الماشية وإلقاء القبض على الأشخاص ولهذا كله تجلت الأسباب الحقيقية لحرب إفريقيا

ثم إن ضابط الجيش الفرنسي أصبحوا يتعلمون اللغة العربية، ويدرسون البلد ويقودون القوافل بلا أي تردد أو التواء، فحسب طوكفيل باتت فرق الجيش الفرنسي هي أسرع من العربي المسلح، تنتقل أخف من العشيرة السائرة، وفي نفس الوقت الذي جعل هذه الفرق أكثر حركية بات بإمكانهم البحث والاهتداء إلى أفضل الأماكن لإقامة معسكرات فرنسا، كما أن الحرب ساعدتهم على التمييز المحكم بين السكان الأكثر حيوية وأحكمهم تنظيما وأشدهم عداوة لهم.[1]

كما أن مراكز الجيش الفرنسي أصبحت تغطي كامل التل وهي بمثابة شبكة واسعة تتسع كلما اتجهنا غربا لترتخي وتضيق شرقا، ومعدل المسافة الفاصلة بين جميع مراكز تل مقاطعة وهران هي عشرون فرسخا.

5- وما هي الوسائل التي يتعين اتخاذها للتقليل المتدرج من تعداد الجيش

يرى البعض أنه يمكن توزيع الفرق العسكرية بما يمكنها من تحقيق نفس النتائج حتى لو تقلص عدد أفرادها، وقال آخرون أن شق طرق المواصلات وتحسين نوعيتها سيقوي شركة فرنسا ويساعد على فرض قوة هيمنتها مما يسمح لها لاحقا بتخفيض أعداد الجيش، فإن الاعتقاد بأن مجرد تنظيم جديد للقوة المادية، أو جعلها في أحسن ظروف النقل والجر، سيؤدي مباشرة إلى تخفيض معتبر في أعداد الجيش.[2]

إن العقبة الحقيقية والدائمة التي تتعارض مع تخفيض تعداد الجيش ويجب الاعتراف بذلك، تكمن في مواقف الأهالي من فرنسا.

6- تنظيم حكم الأهالي

الواقع أن النظام الذي نتبعه في حكم البلد الخاضع لفرنسا هو نظام واحد في كل مكان، وإن تنوع في تفاصيله وجزئياته، فالعديد من الموظفين الأهالي المعينين أو المعترف بهم من طرف فرنسا يديرون

[1] طوكفيل، **كتابات طوكفيل عن الجزائر**، مصدر سابق، ص ص 308 – 316.
[2] نفسه، ص 317.

وتحت مسميات مختلفة شؤون السكان المسلمين، إنهم وسائط بينهم وبين فرنسا، وتبعا لمدى قربهم أو بعدهم من بؤرة قوتها فإن هؤلاء الأهالي المسؤولين يخضعون لمراقبة دقيقة.[1]

إن هذا النظام الذي أقامه جزئيا، تم ضبطه وعممه الجنرال بيجو يستند بكامله إلى عدد محدود من المبادئ.

إن السلطة السياسية من حيث هي صاحبة المبادرة الأولى للمشاريع يجب أن تكون بين أيدي الفرنسيين، ولا توضع أبدا وفي أي مكان بكل أمان بين أيدي الأهالي، هذا هو المبدأ الأول.

أما المبدأ الثاني: فإن معظم مستويات السلطة الثانوية للحكم يجب أن توكل إلى سكان البلاد.

أما القاعدة الثالثة للحكم فهي هذه:

يجب على السلطة الفرنسية أن تعتمد على مراكز النفوذ القائمة حتى تستند عليها، ولقد حاولت القيام بإبعاد الأرستقراطية الدينية والعسكرية للبلد عن شؤون الحكم وتعويضها بأسر جديدة قصد إيجاد مراكز نفوذ تكون ضيعتها، فكانت النتيجة فشل فرنسا الدائم تقريبا في مثل هذه المجهودات لسبب بسيط وواضح للعيان وهو أن تلك المساعي سابقا لأوانها، فإن حكومة جديدة يمكنها بالفعل تفويض سلطتها المادية لأصدقائها ولكنها لا يسعها مع ذلك تمكينها مع القوة الأخلاقية المعنوية ومن قوة الرأي العام التي تفتقر هي بذاتها إليها، وكل ما تستطيع القيام به هو استدراج من يمتلك هذه القوة وتسخيره لخدمة فرنسا.[2]

7- كيف يجب أن تتحدد الذهنية العامة لحكومتنا إزاء الأهالي

يتحدث طوكفيل في هذا الجزء على الطريقة التي تصرفوا بها اتجاه الأهالي حيث يؤكد أن فرنسا احترمت معتقداتهم وشيدوا لهم من المساجد ما لم ينجزوه لهم من الكنائس، بل إن الحكومة الفرنسية تتولى سنويا نقل الحجاج المسلمين الراغبين في زيارة قبر نبيهم حتى إلى أراضي مصر وبصفة مجانية، وهذا ما لم يقم به الأمير المسلم الذي سبق فرنسا إلى الجزائر، ثم إنهم منحوا العرب العديد من الأوسمة الشرفية إلى تأكيد نفس استحقاقات مواطنيهم، حتى أنه حدث استقبال العديد من الأهالي بطريقة ملفتة للنظر على حسب قول طوكفيل.

بعد أن ثبتت خيانتهم لفرنسا وثورتهم عليها، وكيف أن البعض من الذين تعاطوا الاجرام وتلطخت أيديهم بدمائها فور تخليهم عنها، قد استرجعوا أملاكهم وشرفهم ونفوذهم ومكانتهم فور التماسهم كرم عفو فرنسا.[3]

---

[1] طوكفيل، **كتابات طوكفيل عن الجزائر**، مصدر سابق، ص 318.
[2] نفسه، ص ص 319 – 320.
[3] نفسه، ص ص 321 – 326.

لذلك فلو جمعنا هذه العناصر المبعثرة لأمكن الاستنتاج بأن حكومة فرنسا تدفع النعمة الموفورة للمقهورين إلى درجة أنها تتناسى وضعيتها كغازية وأنها تقدم لرعاياها الأجانب أكثر مما لا توفره في فرنسا من سعادة لمواطنيها، هذا بالنسبة للجانب الإيجابي، ولآن لنقلب الصورة ولنتفحص وجهها السيء، فما تسببت به الإدارة الفرنسية من احتلال وتهديم وفوضى لمدن الأهالي يفوق بكثير ما أحدثته أسلحتها، إن عدد من الممتلكات الفردية قد تم انتهاكها وتشويهها وقت السلم، وأن العديد من عقود الملكية التي قد سلمتها للتأكد منها لم ترد إلى أصحابها، ففي ضواحي مدينة الجزائر فإن الأراضي الشديدة الخصوبة قد انتزعت من أيدي الأهالي لتمنح للأوروبيون الذي عوض فلاحتها سارعوا في استئجارها، أخذت فرنسا منهم تعهدات وقبلوها لكنهم نكثوها ووعدوهم بتعويضات ولم يدفعوها بالإضافة إلى إجحاف حقوق ومصالح الأهالي، فلم يكتفوا بتجريد العديد من الأهالي المالكين لأراضيهم من ممتلكاتهم بل ذهبوا إلى أسوأ من ذلك وغلفوا قلوب وأذهان كامل السكان المسلمين بغشاوة م الشك والبلبلة بخصوص فكرة مفادها أن تملك الأرض ووضعية المقيمين فيها هي في نظر فرنسا من القضايا العالقة التي سيتم البث فيها وفق احتياجاتها، كما قلصوا من الجمعيات الخيرة، المدارس وشتتوا الحلقات العلمية، وتناقص توظيف رجال الدين والقانون.

فغدا المجتمع المسلم أتعس وأكثر فوضى وجهالة ووحشية مما كان عليه، إن استعمال الأهالي كأعوان للحكم لهو بدون شك شيء مفيد بشرط السير لهم وفق أحاسيس المتحضرين وبحسب الحكم والقواعد (الأخلاقية الفرنسية).

إن الشعوب شبه المتحضرة لا تفهم جيدا معنى السلم والرفق والتسامح ولكنها تعقل العدالة وتكتفي بها، ومعنى هذا أن العدالة الحقة والصارمة معا، يجب أن تكون قاعدة فرنسا الوحيدة التي تتصرف بها إزاء الأهالي حينها يذنبون في حقها على حسب قول طوكفيل، أي أن الشيء الوحيد الذي يتوجب عليها توفيره لهم هي الحكومة الصالحة أي وجود سلطة تسيرهم ليس فقط وفق ما يحقق مصالح فرنسا بل ومصالحهم كذلك، سلطة تسعى مخلصة لتحقيق ذلك، ينشغلون بسعادتهم، تحرص على حقوقهم تعمل بحماس لتحقيق التنمية الدائمة لمجتمع الأهالي المتخلف.

8- كيف يجب أن نتصرف إزاء الأراضي

فبعد تسليم مدينة الجزائر تعهدت فرنسا بضمان المحافظة على الدين والملكية ثم تعاملت مع مختلف العشائر المستسلمة على نفس الأرضية.

ففرنسا كل ما يهمها هو أمنها الخاص وكذا شرفها هو التعبير عن احترامها الحقيقي لملكية الأهالي وإقناع رعاياها المسلمين بأنها لا تنوي أبدا الاستلاء على أي جزء من أراضيهم بدون تعويض، وفي أسوأ الأحوال الحصول على ذلك باللجوء إلى صفقات ولو مشبوهة وتافهة، ولكن الأسوأ من كل ذلك أن يختفي

العنف المكبوت وراء صيغ البيع العلني، أو أن يتجلى الخوف من وراء مظهر البيع، ويتعين العمل على تثبيت العشائر في أقاليمها والعدول عن نقلها إلى أماكن أخرى.[1]

إن العملية برمتها تبقى غير منتجة سياسيا لكونها تؤدي إلى الفصل بين عرقين أحدهما عن الآخر.

وبعزل العرقين تغذي فرنسا العداوة بينهما، وهي من جهة أخرى عملية قاسية جدا مهما كانت طريقة تنفيذها وتشكل لحظة احتكاك الساكنة الأهلية بالساكنة الأوروبية فرصة ملائمة للتعبير عن حاجتها إلى الوصاية تجد نفسها خاضعة بصفة كلية أو جزئية إلى موظفي فرنسا وقوانينها.

9- يجب تقييد الصفقات العقارية الجارية بين العرب والأوروبيين

فالصفقات العقارية الجارية بين الملوك المتوحشين والأوروبيين المتحضرين كلما تمت بدون مراقبة، انفلتت معها الأراضي من أيادي هذا إلى أيادي ذاك وبسرعة وبسهولة وبثمن بخس، مما أدى إلى استئصال جذور الساكنة الأهلية عن أراضيها.

وإذا أرادت فرنسا تجنب ذلك يجب أن لا تعقد مثل هذه الصفقات وفي أي مكان على حسب رأي طوكفيل بكل حرية.[2]

10- ما هي النتائج التي يؤمل الحصول عليها من تأثير حكومة صالحة على الأهالي

لا توجد حكومة ومهما كانت رشيدة ومتسامحة وعادلة، يكون بإمكانها أن تقرب أو توطد فجأة صلة الوحدة بين مجموعات سكانية ظل دينها، تاريخها، وأعرافها تفرق بينها شر تفريق، بل وقد يكون من التهور والسفاهة التباهي بإمكان تحقيق ذلك، ومن الحماقة الاعتقاد والتوهم بأن تطهير قلوب الأهالي من الضغائن الدفينة التي أثارتها وغذتها الهيمنة الأجنبية عليهم أمر يسير ويتم بين عشية وضحاها، فهذا يستوجب إذن أن تبقى فرنسا ومهما كانت طريقة تصرفها إزاء الأهالي الأشداء. وهذه ستكون دائما في هذا المجال قاعدة فرنسا الأولى على حسب طوكفيل.

ففرنسا لا تطمح لإخماد المشاعر العدائية التي تنشرها حكومتها بل تتطلع إلى امتصاصها والتخفيف منها.[3]

كذلك لا تريد القضاء على ما يبديه المسلمون وبصفة دائمة من اشمئزاز لحكم أجنبي ومسيحي، بل تجعلهم يكتشفون بأن هذا الحكم مهما كان منبوذا أنه قد يكون مفيدا لهم.

---

[1] طوكفيل، **كتابات طوكفيل عن الجزائر**، مصدر سابق، ص ص 327 – 329.
[2] نفسه، ص 329.
[3] نفسه، ص 330.

إن الأسعار التي يجنيها الأهالي من سلعهم وشغلهم قد تضاعفت كثيرا منذ اقترابهم من فرنسا كجيران ومن جهة أخرى فإن فلاحيها يعتمدون على الأهالي. إن الأوروبي في حاجة إلى العربي لاستصلاح أرضه، وأن العربي يحتاج إلى الأوروبي للحصول على مرتب معتبر، وبهذه الكيفية فإن المصالح المشتركة هي وحدها القادرة على أن توحد بصفة طبيعية بين رجلين، فهذه هي الواجهة التي يتعين على فرنسا أن تسير صوبها وذلك هو الهدف الذي يجب أن تطلع عليه على حسب طوكفيل.[1]

فمصير هيمنة فرنسا على افريقيا وتعداد جيشها وحال ميزانيتها يتوقف على طريقة تعاملها مع الأهالي، طالما أن المسائل الإنسانية والمالية في هذا الميدان تتلاقى وتتعاون بشدة، كذلك فإن حكومة صالحة تستطيع وعلى المدى البعيد نشر السلم على ربوع البلاد والتخفيض الحقيقي في أفراد الجيش.

11- العبودية في إفريقيا

لا تضم فرنسا من بين رعاياها المسلمين أحرار فحسب بل أن من بين سكان الجزائر علاوة على ذلك، فئة قليلة من الزنوج الرقيق.

يقول طوكفيل " أن الاستبداد لا يحمل عند أتباع محمد "صلى الله عليه وسلم" نفس الدلالة الجارية عندنا في مستعمراتنا "، فهذه المؤسسة قد فقدت في كامل الشرق جزء من صرامتها، ولكنها أضحت عذبة أكثر، إلا أنها لم تعد مع ذلك أقل تعارض مع جميع مبادئ الحقوق الطبيعية للإنسانية، فمن المستحسن أن تعمل فرنسا عليها أجلا للقضاء عليها.

وكذلك لا يجب أن تعمل على تسريع عملية محو العبودية إلا باحتياط وحذر، إن العملية إذا ما تمت بهذه الكيفية لن تعترضها مقاومات عنيفة، ولن تتسبب في إحداث مخاطر.[2]

في الأخير نقول أن طوكفيل كتب تقرير سنة 1847 بصفته مقرر لجنة برلمانية كانت مهمتها تقديم للغرفة تمهيد المناقشة مشروعي قوانين يتعلق الأول منهما بالاعتماد التي ستخصص للجزائر، أما الثاني فيخص اقتراح بيجو أحد قادة الاحتلال إنشاء معسكرات أو قرى فلاحية عسكرية.[3]

ومن جملة القضايا التي ناقشها في الأول كيفية توثيق السيطرة على الأهالي وحدودها وإمكانيتها ومبادئها، كما تطرق إلى كيفية إدارة شؤون الأوروبيون في الجزائر، وأشكالها وقواعدها وكيفيات التوفيق بين القوانين المطبقة في الوطن الأم، وتلك التي ينبغي أن تراعي ظروف المستعمرة الجديدة ومتطلباتها.

---

[1] طوكفيل، **كتابات طوكفيل عن الجزائر**، مصدر سابق، 331.

[2] نفسه، ص ص 333 – 334.

[3] شارل أندري جوليان، **تاريخ الجزائر المعاصرة الغزو وبدايات الاحتلال 1827 – 1871م**، ج 01، دار الأمة، الجزائر، 2013، ص 376.

كما بحث في الاستيطان وأمكنته وشروطه وإجراءاته وما يتصل به كقضية ملكية الأراضي في الجزائر وكيفية تنظيمها، ومعلوم أن حصول المستعمرين على هذه الملكية لكون بانتزاعها من أصحابها استنادا إلى حق "الغزو" وإما بالشراء الطوعي، وكان موقفه من هذه القضية غير ثابت، بل متطور ومتغير، حسب متطلبات الموقف السياسي.

المبحث الثالث: تقييم الكتاب

المطلب الأول: آراء مختلفة عن صاحب الكتاب

المطلب الثاني: تقييم الكاتب والكتاب

المبحث الثالث: تقييم الكتاب

المطلب الأول: آراء مختلفة عن صاحب الكتاب

تعددت الآراء والأقوال حول المفكر السياسي ألكسيس دو طوكفيل، فالبعض نظر إليه بالإيجابية والبعض بالسلبية، فكانت هذه أهم الآراء حول هذا الأخير نذكر منها:

1- رأي عفاف عنيبة[1]

حيث تقول عثرت في الرسالة الثانية عن الجزائر لألكسيس دي طوكفيل على الملامح البشعة للاحتلال الفرنسي عبر قلم وفكر رجل ينظر إليه على أنه أحد أكبر الشخصيات الفرنسية عبر القرون، بعد شهور من مطالعتي للكتاب رأيت من واجبي أن أحرر مادة محاضرة حول الرؤية الاستعمارية لألكسيس دي طوكفيل ومساهمته الفعلية في رسم معالم خطة احتلال الجزائر، فالرجل اعتبر استعمار الجزائر فرصة ذهبية لفرنسا لتقيم هناك مستعمرة نموذجية تحقق لبلده الامتداد والنفوذ الضروريين لقوة فرنسا المتعاظمة.[2]

1.1) النظرة الاستعلائية لألكسيس ديطوكفيل

أول ما يستدعي انتباهنا حسب قول عفاف عندما نقلب نظرنا في الفكر السائد في القرنين 17 و18 و19م في أوروبا هي نظرة الاستعلاء التي تطبع الفكر الغربي. فمفكرون وأدباء مثل الأديب السياسي الفونس دي لامارتين[3] أو فيكتور هوغر[4] أو ألكسيس دي طوكفيل، يحللون ويفكرون وفق معايير تحقر من شأن الشعوب غير الأوروبية، معتبرين إياها خارجة عن السياق الحضاري والتاريخي لأوروبا المسيحية متقدمة في جميع المناحي الحياتية.

---

[1] مفكرة حرة، باحثة، أديبة روائية مسلمة، حررت ركن قارا في الصحافة المستقلة منذ 1994 إلى 2013 في الصحف التالية: أسبوعية الوجه الآخر، الحقيقة، العالم السياسي، كواليس وأخيرا البصائر لسان" حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين". في 2005 عملت مستشارة متطوعة لفائدة القناة السابعة التركية مع فريق إنتاج شريط وثائقي من عدة حلقات بعنوان " ما وراء الجدران " قد نظمت لقاءات بين المخرجة التركية السيدة أسيلهان إيكر وبعض نساء المجتمع الجزائري، في نوفمبر 2006 مثلت دولة الجزائر في برنامج حوار الديانات بالو. م. أ لمدة 21 يوم.

[2] عفاف عنيبة، **الرؤية الاستعمارية لألكسيس دي طوكفيل: الجزائر أنموذجا.** للمزيد انظر:
http://bohothe.blogspot.com/2010/05/blog-post_19.html

[3] شاعر وسياسي فرنسي ولد في 21 أكتوبر 1790، وتوفي في 28 فيفري 1869، يعد أحد أكبر شعراء المدرسة الرومانسية الفرنسية، خاض غمار السياسة، فتولى رئاسة الحكومة المؤقتة، بعد ثورة 1848، من أشهر أعماله "تأملات شعرية" (1820)، و"جوسلين" (1836)، و"سقوط ملاك" (1838) من أشهر قصائده "قصيدة البحيرة" التي ترجمها للعربية نقولا فياض.

[4] كان أديبا وشاعرا وروائيا فرنسيا، ولد في 1802، وتوفي في 22 ماي 1885، يعتبر من أبرز أدباء فرنسا في الحقبة الرومانسية، وترجمت أعماله إلى أغلب اللغات المنطوقة، وهو مشهور في فرنسا باعتباره شاعرا في المقام الأول ثم روائيا، فقد ألف العديد من الدواوين أشهرها ديوان تأملات، الأسطورة، العصور، كما كان مؤيد النظام الجمهورية في الحكم، وأعماله تمس القضايا الاجتماعية والسياسية في عصره.

ففكرة احتلال الجزائر كانت تداعب مخيلة الكثيرين من رجال السياسة والفكر الفرنسيين باعتبارهم في حاجة إلى امتداد جغرافي واقتصادي وثقافي ليجلبوا ما سموه بالحضارة إلى الشعوب المتوحشة وهكذا محو قلم الوجود الحضاري للدولة العثمانية عن قيم العدل والفضيلة المستمدة من الشريعة الإسلامية ولجوءهم إلى محاولات إصلاح تارة رمزية وتارة أخرى مستنسخة من الغرب المسيحي العلماني والتي لا تتلاءم وخصوصيات ومكونات وعقيدة المجتمعات المسلمة.[1]

فذلك الانحطاط الذي كان يسود ربوع العالم الإسلامي أتاح الفرصة لاستقواء أوروبا المسيحية التي لم تغفر للمسلمين وحضارتهم ودينهم أنهم هددوها في عقر دارها بحيث وصلوا إلى أسوار فيينا في 1529 م، وعبر البيريني الفرنسية إلى بواتيه حاملين معهم نظام وفلسفة حياة مخالفين لرسالة البابا والكنيسة الكاثولوكية في روما، فكان هناك جماعتين تتنازعهما رغبة الانتقام. المجموعة الأولى هي ما يسمى برجال الدين التي أرفقت جيش فرنسا بجيش آخر من القسيسين والمبشرين المسيحيين والمجموعة الثانية السياسيين والمفكرين الفرنسيين الذين كانوا ينظرون إلى ما وراء البحر والأطماع تحدوهم في ضم أرض ودولة أزعجتهم سيطرتها البحرية على البحر الأبيض المتوسط، فالنظرة الاستعلائية التي قادت رجال مثل طوكفيل إلى تأليف رسائل حول كيفية مساعدة الدولة الفرنسية على إحكام قبضتها على الجزائر هي من كانت ولا زالت وراء عدم اعتراف فرنسا بجرائمها وماضيها الاستعماري البشع في الجزائر وباقي مستعمراتها.

وكما جاء في مقولته الشهيرة "لا نستطيع أن نحكم أمة لمجرد أننا هزمناها"، فقد كلفت السلطات الفرنسية المفكر الفرنسي دو طوكفيل بدراسة المجتمع الجزائري بغية تسهيل إدارة الدولة الفرنسية لشؤون مستعمراتها، فدائما ما تسند مهمة دراسات المجتمعات المراد احتلالها لرجال مستعدين للدوس على ضمائرهم وقيم الحق لينجزوا المهمة القذرة، وفي معظم الأحيان يغلب على هذه الدراسات طابع العنصرية باعتبار أن الشرائح الإنسانية المدروسة ينظر لها كأنها جماعات لا إرادة منها.[2]

يقول المؤرخ الفرنسي كاميل روسيل: " لم يحاول الفرنسيون أن يخفوا انطباعات غريبة مع أن المدينة لم تكن خالية تماما فهنا تشهد تاجرا يقبع أمام دكانه المغلق، وهناك تلمح أشباح نساء إسرائيليات فوق سطوح المنازل، وفي ملتقى الطرق، وكانت جماعات قليلة من الجزائريين والأتراك تدخن في صمت ثقيل ".

[1] عنيبة، مرجع سابق.
[2] نفسه.

فقد كانت هذه المناظر تمثل للفرنسيين مشاهد للفرجة إن الجزائريين لم يعيروا الفرنسيين أدنى اهتمام، ثم قال روسيل: " إن هذا الاحتقار الواضح الذي قوبل به جنود الاحتلال الفرنسي هو الذي جعل هؤلاء المنتصرين، يستغربون ويتعجبون من هذا الوضع، لقد كان هذا المنظر من مظاهر الاحتفاظ بالكرامة، وهذا الهدوء الرزين الذي لجأ إليه الجزائريون، هو الذي أقلق الفرنسيين إذ بدا لهم كأنه تحد جارح لانتصارهم".

2.1) أكذوبة المهمة الحضارية لفرنسا

ونبدأ بأول جملة تكشف القناع عن المهمة الحضارية لفرنسا في الجزائر: " عندما نكون قد تعرضنا على اللغة الأحكام المسبقة وفقا ليد العرب، وبعد ما نكون قد ورثنا احترام الرجال، الاحترام الذي يحملونه دائما نحو حكومة مستقرة، سيكون متاح لنا أن نقود شيئا فشيئا إلى عادتنا وفرنسة البلاد من حولنا". هذا ما كتبه دو طوكفيل.

فألكسيس دو طوكفيل كان يرى أن الجزائر أرض صالحة للاستغلال ولمد فرنسا بقوة عسكرية وسياسية ستسهل عليها مهمة الاستيلاء على بقية أجزاء العالم الإسلامي الذي كان يعرف انحطاطا رهيبا، والتنافس كان على أشده بين فرنسا والإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس بريطانيا العظمى، فالرجل كان مقتنعا تماما بأنه بوسع فرنسا استعمال وسائل أخرى غير الحرب لكبح قوة الشعب الجزائري وإحكام قبضة الاحتلال عليه، فهو كعالم اجتماع ومفكر كان يرى في تشريح المجتمع الجزائري بتسليط الضوء على تركيبته الاجتماعية وعلى منظومة قيمه. لهذا حرص طوكفيل على مساندة مهمة فرنسا الاستعمارية بدراسة المجتمع دراسة علمية التي كانت أقوى سلاح في أيدي فرنسا لتتمكن من مواجهة الجزائريين والذي عمل بعضهم على الالتفاف حول الأمير عبد القادر ضد فرنسا والبعض الآخر خلف الباي أحمد.

من بين الملاحظات الخطيرة التي دونها طوكفيل في رسالته الثانية وهي تتعلق بجهل فرنسا لواقع الجزائر آنذاك " لم تكن لدينا أي فكرة واضحة عن مختلف الأعراق التي تقطن بها ولا أخلاقهم، لم تكن تعرف كلمة اللغات التي كانت تتكلمها شعوبها، البلد ذاته، ثرواته، أنهاره، مدنه، ومناخه لم نكن نعرف شيء عن كل هذا ". فما يهم على حسا "عفاف عنيبة" حديث دي طوكفيل على اختلاف الأعراق واللغات والشعوب، حيث تقول ألا يتهيأ لكم أن الرجل لم يكن يتكلم عن الجزائر بل عن بلد كما يريد أن يراه هو، منذ متى كان ينظر الشعب الجزائري في 1830 إلى نفسه أنه عدة أعراق وعدة شعوب وله عدة لغات في وقت واحد؟" فكيف لطوكفيل أن يزعم أن للجزائر عدة شعوب وأعراق وعدة لغات، فالاستعمار الفرنسي حاول تشتيت وتجزأة ما كان يمثل وحدة متماسكة، فطوكفيل تعمد تجاهل عامل جد مهم في الهوية الجزائرية أن الحماية العثمانية للجزائر كانت مسلمة وأن غالبية السكان من بربر كانوا يدينون بالإسلام.

فالاحتلال الفرنسي في بداية غزوه للجزائر تمركز في المناطق الساحلية وجيوب ضيقة من الداخل، مما جعله يستند بأمثال دو طوكفيل يرسم له الخطوات القادمة في توغله داخل الأراضي الجزائرية.

سيصطدم قارئ الرسالة الثانية عن الجزائر بتشخيص مريب منذ البداية كان التصنيف البشري لسكان الجزائر قائم على نية غير بريئة، فهؤلاء بربر وأولئك عرب، فيقول طوكفيل: " القبائلي إيجابي أكثر، أقل إيمانا وأقل حماسة بكثير من العربي، فعند القبائل الانسان هو تقريبا كل شيء والمجتمع تقريبا لا شيء وهما أبعد بلا انصياع بشكل جماعي لقوانين حكومة واحدة شكلت منهم على أن يتبنوا نظامنا "، وهذا الوصف ظالم لإخواننا البربر لأن أهم المماليك التي توالت في الجزائر منذ الفتح الإسلامي كانت بربرية بالأساس، لماذا هذا الوصف الخبيث الذي يريد أن يوحي لنا صاحبه بأن أبناء جرجرة أصعب على التطويع من بقية إخوانهم الجزائريين.

ثم إن الرجل أوهمنا بأن الدولة العثمانية تركت بلدا ضعيفا تعمه الفوضى والأحقاد، كما ذهب طوكفيل إلى نقد سياسة فرنسا في إعطاء الأمير والباي سلطة على الأراضي ومساحات شاسعة في الغرب والشرق والصحراء، فهو لم يكن راضي على هذه السياسة وكما قال: " إذا ما تنازلنا لهم على كل هذه الأراضي فنحن نقوي شوكتهم وهذا غير مقبول " وهذه إحدى الأسباب الرئيسية في تقسيم وزرع بذور الفتنة وسط شعب واحد، فقلبوا الجزائريين ضد بعضهم البعض.

فاقترح طوكفيل إنشاء دولة تعمل لحساب فرنسا في الجزائر، محذرا من فوضى القبائل وانقلاباتها، حيث قال "تجمعات بشرية شبه وحشية" وهذا وصف غير لائق، فهل هذه هي ذهنية الغربي المتعالية؟

عمد منذ البداية إلى الحط من شأن سكان الجزائر بغية تسهيل عملية إخضاعهم، حذر من المخاطر التي تنجم عن تجاوز الواقع كما هو، لكنه أعطى المبررات الكافية لجعل هذا الشعب سهل الانقياد.

وهو القائل في رسالته "لاتقضي مصلحتنا أن تكون هناك حكومة واحدة عند العرب، مصلحتنا أكبر أن لا نتركهم تحت سلطة حاكم واحد، لأن الخطر سيفوق مصالحنا. فيهمنا كثير أن لا نترك العرب في فوضى، والذي يهمنا أكثر أن لا نسمح لهم بأن يصطفوا في جهة واحدة ضدنا". فعارض القضاة على سيادة بعض القبائل المستقلة عن حكم الأمير عبد القادر بل شجع على دفع القبائل إلى المزيد من الاستقلال والانفصال عن بعضهم البعض، فقبول دو طوكفيل مبدأ احترام استقلالية بعض الجماعات والتحكم فيها بشكل غير مباشر ما هو إلا طريقة ذكية في كسب ودهم وولاءهم.[1]

[1] عنيبة، مرجع سابق.

3.1) تناقضات ألكسيس دوطوكفيل

حاول منذ البداية أن يوظف الحرب كوسيلة للاستلاء على الأراضي، واصفا ذلك بما يلي: "عدت من إفريقيا بانطباع أننا نخوض حرب بشكل بربري أكثر من العرب أنفسهم! لم نكن في حاجة لنعوض الأتراك لنكرر ما جعل العالم يمقتهم، فهذا بالنظر إلى المصلحة نظر غير مفيد، كثيرا ما سمعت في فرنسا رجال أحترمهم ولا أؤيدهم أدانوا حرق المحاصيل وسجن المجردين من السلاح من الرجال والنساء والأطفال، فهذه أمور بالنسبة لي أشياء ضرورية ومقرفة، غير أنها لازمة لأي شعب يحارب العرب، أظن أن حق الحرب يجيز لنا حرق المحاصيل في مواسم الحصاد وفي كل الأوقات علينا القيام بهجومات تستولي فيها على الرجال والماشية".[1] هذا الكلام لرجل يمقت الحرب ومعارض للاستبداد؟ هذا التناقض العجيب بين قناعات متضادة دلالة على الحكم بمقياسين وميزانين، فما يصلح لهؤلاء لا يصلح لأولئك.

فقد كان طوكفيل يرى أن الاستعمار يصطدم بثلاث عقبات رئيسية وهي على التوالي:

1- سيطرتهم على الأهالي، حدود هذه السيطرة ووسائلها ومبادئها.

2- إدارة الأوروبيون حدودها وضوابطها.

3- الاستيطان، مكانه أشكاله وطرقه، فهو يرى أنه كلما سنحت الفرصة لمعرفة البلاد وسكانها الأصليين ستظهر ملحة الفائدة.[2]

يقول طوكفيل: " أصبح السكان المسلمون أكثر شقاء ووحشية وفوضوية مما كانوا عليه قبل أن يتعرفوا علينا... لا يجب أن نكره الإنديجان[3] على إرسال أبنائهم لمدارسنا، لنعينهم على تكوين رجال قانون ودين والتي لا تستغني عنهم الحضارة المسلمة كما هو الحال معنا".[4] هذا الكلام لرجل داهية كما وصفه أوليفي لاكور غراندميزون في كتابه القيم " **استعمروا... أبيدوا** ".

فالسياسي الفرنسي دو طوكفيل طول تعامله مع الحالة الجزائرية انطلق من رؤية عنصرية، لا تؤمن بحق الآخر في تقرير مصيره بشكل مستقل ووصف الوصاية الفرنسية كشرط ضروري لاستقرار جنوب البحر الأبيض المتوسط.[5]

---

[1] فقرة مأخوذة من العمل في الجزائر في أعمال غير كاملة منشورات غاليمارد بلياد عام 1991، وردت في موقع www.wikipedia.fr

[2] عنيبة، مرجع سابق.

[3] يقصد بها الأهالي.

[4] مأخوذ من تقرير 1841، ص 325.

[5] عنيبة، مرجع سابق.

2) رأي جاردان، وبيير ماننت

وهما من الدارسين الجادين لطوكفيل أن اهتمام هذا الأخير بالجزائر جاء عرضا وظرفيا أملته عليه الوضعية الداخلية والدولية الصعبة لفرنسا ملك فليب العاشر، وقد بدأ اهتمامه بالجزائر عقب إنجازه لكتابه عن "الديمقراطية في أمريكا، جاء كمناسبة سعيدة للتأكد من نجاحه وسداد المنهجية المتبعة ودقة وصلاحية المصطلحات المصاغة.

ومن صرامة الاستنتاجات المتوصل إليها، خاصة فيما يتعلق بالهجرة والاستيطان وصراع الأعراق الجارية على أشدها وبنفس العنف في أمريكا كما في الجزائر، وتبقى المصطلحات الموضوعة حول التنظيم المجتمعي كالديمقراطية ومشتبهاتها مثل الحرية والعدالة والمساواة هي مصطلحات لا تنطبق في الشق الجزائري إلا على المهاجرين إلى الجزائر دون سكانها الأصليين لكون هؤلاء غير مهيئين ثقافيا واجتماعيا وسياسيا لممارسة الديمقراطية المترتبة على ثلاثي الحرية والعدالة والمساواة.[1]

وأغرب ما في الأمر أن طوكفيل الذي اهتم بالدور الذي لعبه الدين المسيحي في إرساء أسس الديمقراطية الأمريكية، لاحظ أن الحضور القوي للدين الإسلامي في المجتمع الجزائري هو الذي حال دون إرساء الديمقراطية بل ساهم في استبدالها بالاستبداد والقهر والظلم والقابلية للاستعمار، وهو ما فرض على فرنسا واجبا أخلاقيا لتحرير هذا المجتمع ورفع الظلم عليه، والفكرة تحتاج إلى المزيد من البحث والتقصي لتأكيدها.[2]

3) رأي الأستاذ تودوروف [3]

وهو كذلك من المنكبين على دراسة طوكفيل في علاقته المتوترة بالجزائر، فتحول طوكفيل نحو الجزائر جاء كمناسبة سياسية ليعرض من خلالها خبراته السياسية كرجل الدولة ومعارفه كمفكر واسع الاطلاع على مجريات الأمور الوطنية والدولية مما يرشحه للانضمام إلى الدائرة الضيقة الدراسة لقضايا الساعة والقادرة بطبيعة الحال على التأثير في مواقف أهل الحل والعقد بفرنسا الرسمية المتذبذبة المواقف وبالخصوص الموقف النهائي من هذه المستعمرة " المشكلة ".

فمعرفة طوكفيل الدقيقة لطريقة احتلال الأوروبيون للعالم الجديد وعلاقاتهم العنيفة بالسكان المحليين سيسهل عليه مقارنة الحادثتين المتباعدتين جغرافيا وثقافيا، المتقاطعتين سياسيا واقتصاديا مع لفت

---

[1] طوكفيل، **كتابات طوكفيل عن الجزائر (1837-1847)**، مصدر سابق، ص 37.

[2] نفسه، ص38.

[3] فيلسوف فرنسي - بلغاري، ولد في 01 مارس 1939 في مدينة صوفيا البلغارية، يعيش في فرنسا منذ 1963، ويكتب عن النظرية الأدبية، تاريخ الفكر ونظرية الثقافة، توفي يوم 07 فيفري 2017 عن عمر 77 سنة، نشر 21 كتابا، بما في ذلك "شعرية النثر (1971)"، "مقدمة الشاعرية (1981)"، "وغزو أمريكا (1982)".

الانتباه إلى الفروق النوعية والموضوعية بين التجربتين المأساويتين، وهي تلك الظروف التي حالت دون تحول الجزائر إلى أمريكا أو استراليا وكندا أو حتى جنوب إفريقيا.[1]

ومع ذلك ركب الفرنسيون رؤوسهم العنيدة ودخلوا في وحل تاريخي لم يجدوا له مخرج إلا بعد 130 سنة من النازلات الماحقات والفضائح، الشنائع كان يمكن تفاديها لو احتكموا إلى العقل السليم القاضي والقائل لهم بأن الجزائر ليست فرنسا، ولن تغدو فرنسية مهما كلف أهلها من تضحيات.

وقد صارح الجنرال ديغول ذات يوم صديقه ووزيره للإعلام في نوع من " الاعتراف " وبالمعنى الديني لكلمة اعتراف المتضمن غالبا الاعتراف بالخطيئة الكبرى التي لا تغتفر، قال له بحسرة ومرارة ما معناه: "هناك رجل واحد كان على دراية ووعى تأمين بالمأزق المسدود الأفق الذي انساقت إليه فرنسا". إنه نابليون الثالث الذي صارح بدوره أحد المقربين إليه قائلا بأن الجزائر ليست مستعمرة كغيرها من المستعمرات إنها ستكون المملكة العربية التي تسعى إلى بنائها وسيتولى الأمير عبد القادر الرجل الشهم.[2]

المطلب الثاني: تقييم الكتاب والكاتب

صدر للأستاذ علي زيكي عن دار الجائزة كتاب " كتابات طوكفيل عن الجزائر"، 1837-1847م " طوكفيل بين الديمقراطية والاستبداد "، والكتاب عباره عن ترجمة من الفرنسية إلى العربية لمجموعة من النصوص التي كتبها الفيلسوف السياسي ألكسيل دو طوكفيل.

أول نص لألكسيس دو طوكفيل اختاره الكاتب "علي زيكي" لترجمته إلى العربية يحمل عنوان "رسالة عن الجزائر" والذي كتبه في 1837م بعد الرحلة التي قام بها إلى الجزائر وكانت في 1841، وهي رحلة قال عنها " دحو جربال " في مقدمة الكتاب: " إنها تزامنت مع فترة النظام الذي أقامته ملكية جويلية (1830-1848)، إنها رحلة فيلسوف يحمل فكرا عقلانيا بارزا وسياسي يؤيد الإصلاحات الديمقراطية في ملكية برلمانية، حيث كان الملكيون الأورليانيون لازالوا يتشبثون بضرورة حصر حق الانتخاب على دافع الضرائب دون غيرهم من الناس"، ومن خلال النص الأول الذي نشره طوكفيل عن الجزائر نكتشف أن هذا الفيلسوف طالما كتب ودافع عن الديمقراطية وعن القيم التي جاءت بها الدولة الفرنسية القائمة عن المساواة والحرية والعدالة، إنه أحد المفكرين المدافعين عن السياسة الهمجية التي انتهجتها فرنسا بمجرد احتلالها للجزائر 1830م، ويشير الفيلسوف طوكفيل بأن مدينة الجزائر تعرضت بمجرد استيلاء الجيش الفرنسي عليها بكل أشكال وأنواع الهمجية، فقد نفي الداي وجنوده وميليشيّته ممن

[1] طوكفيل، مصدر سابق، ص 38.
[2] نفسه، ص 39.

بقوا على قيد الحياة، ولم تسلم المكاتب الإدارية حسب طوكفيل من هذه الوحشية التي طبعت سلوكات الجنود الفرنسيين، فقاموا بجمع وإحراق كل الوثائق المكتوبة والسجلات الإدارية، والشهادات الأصلية.

ويعترف طوكفيل بأن الجيش الفرنسي قام بمحو كل آثار التمدن في مدينة الجزائر من خلال تهديمه للعديد من أزقة وطرقات مدينة الجزائر، وقد شجع طوكفيل هذه السياسة الهمجية وباركها وبرر هيمنة واحتلال فرنسا للجزائر بأنه أمر لا مناص منه لإنقاض فرنسا من الهلاك والإفلاس، وكان يطمح إلى امتلاك قطعة أرض في الجزائر، فأين قيم هذا الفيلسوف والتزامه كمثقف ينتمي للنخبة.

خلال النص الأول لطوكفيل نستكشف فكره العنصري وتتوضح لدينا صورة المثقف الفرنسي على حقيقتها، فقد كتب عدة ملاحظات مخزية عن الجزائر ففي الصفحة 77 يقول: "فلو تعلمنا لغة وذهنيات وأعراف العرب واستفدنا من دروس احترامهم الدائم للحاكم القائم لأمكننا كل ذلك من العودة اليسيرة المتدرجة إلى عاداتنا نحن، وسهلت عملية فرنسة البلد المحيط بنا من جميع الجهات والحال أن الأخطاء المرتكبة اليوم لا يمكن تداركها بسرعة...".[1]

ويظهر بوضوح مدى تعفن فكر ألكسيس فهو يؤمن بفكرة التمييز بين الأعراق وأن العرق الأوروبي أرقى من بقية الأعراق الأخرى، وهو فكر يحتقر الآخر ويراه دون المستوى.

في الصفحة 79 كتب: **" ولو قامت بيننا وبين القبائل علاقات وثيقة وهادئة حتى لا يشكوا في طموحنا، ثم عاملناهم بتشريع بسيط وآمن يحملهم وذويهم، فمن المؤكد أنهم سرعان ما سيتجنبون الحرب أكثر منا وأن هذه الجاذبية الأخاذة التي تدفع بالمتوحش للاستئناس بالمتحضر..."**.[2]

فقد حاول علي زيكي عبر مؤلفه كتابات طوكفيل عن الجزائر تعريف القارئ الجزائري بشخصية هذا الفيلسوف الذي عرفته الجامعة الجزائرية التي لازالت تستنتج المسار الفرنسي أنه منظر للديمقراطية التي لا تصلح حسبه في المجتمعات البربرية والهمجية، رغم أنه سبق وأن أشاد بالتجربة الأمريكية حيث بدى فكره الاستقراطي والايديولوجي واضحا من خلال كتاباته، ومستغلا قضية الجزائر للوصول إلى البرلمان متبنيا مشروع قوي يدافع عن (جزائر فرنسية)، معتبرا إياه ضمانا لقوة فرنسا، حيث يقول في هذا الإطار: إذا فشلت فرنسا في حربها ضد الجزائر فإن مصيرها سيكون غير مضمون وغير مؤكد لذا لابد من احتلال الجزائر والبقاء فيها مهما كلفها ذلك من تضحيات، وثمن يتمثل في الدفع بجيش قوي لاحتلال الجزائر وثانيا لمواجهة المقاومات المختلفة خاصة مقاومة الأمير عبد القادر، ثالثا أن بقاء فرنسا في الجزائر يكون ضمانا لها اقتصاديا، سياسيا، استراتيجيا، ثقافيا وحضاريا، ولعل من بين أهم الأفكار

[1] طوكفيل، **كتابات طوكفيل عن الجزائر**، مصدر سابق، ص 77.
[2] نفسه، ص 79.

التي جاءت بها الترجمة والتي قد تثير القارئ الجزائري بأنه يعرف جيدا حقارة فرنسا والتي حاولت بأبشع الطرق استعمار الجزائر منتهجة كل أساليب الاستغلال والإجرام وأن ما فضح هذا المفكر الذي أخذ لقب منظر الديمقراطية أمام العالم والقارئ العربي بالخصوص، كون الكتاب باللغة العربية، فطوكفيل عند وصوله إلى الجزائر في أكتوبر 1841م قال: "لقد سمعت أحيانا في فرنسا أناسا احترمهم يقولون بأنه من السيء أن يتم حرق المحاصيل وأن يقع تفريغ مطامير القمح وأن يلقى القبض على رجال غير مسلحين، وأيضا على النساء والأطفال، وأنا لا أوافق هؤلاء السادة على مثل هذا الكلام، وأرى أن مثل هذه الأعمال المؤسفة ضرورية لشعب يرغب في شن حرب ضد العرب بهدف جبرهم على الرضوخ لهم"، ولم يتوقف هنا وإنما حاول إيجاد بعض التبريرات الوهمية التي لا تخرج عن إطار الإجرام الاستعماري، حيث يضيف "أعتقد أن واجب الحرب يسمح لنا أن نخرب البلد وأن نفعل ذلك إما بتدمير المحاصيل الزراعية وقت الحصاد والجني، وإما بالقيام في كل الأوقات بهجمات يكون الهدف الأساسي منها إلقاء القبض على الرجال والاستيلاء على قطعان الغنم والدواب".

قام ألكسيس دوطوكفيل بدراسة كافية وشاملة للأمير عبد القادر الذي كان يقود في ذلك الوقت مقاومة شرسة في الغرب الجزائري، حيث استطاع في أكثر من مناسبة هزم فرنسا التي لا تقهر، حيث اعتبر ألكسيس الأمير عبد القادر النموذج الحي والنادر والخطير الجامع بين الحماس المخلص والحماس المتخلف قائلا أن هذا الأمير لا يفتا تواضعه وبساطته ويقوي شوكته ويدعم قوة حكمه وسلطانه، ولذلك اشتغل طوكفيل للبحث عن طرق للقضاء على قوة الأمير، حيث طالب الجنرالات الفرنسيين بضرورة مواصلة تعقب الأمير شخصيا لقطع الصلة بينه وبين القبائل التي تمده بالعتاد والسلاح والرجال، وبتدمير كل البنى الاقتصادية والاجتماعية التي يستند إليها بهدف جبره على الرضوخ والاستسلام كما طالبهم أيضا بمنع السكان المحليين من ممارسة الأعمال التجارية قائلا: (إن مثل هذه العقوبات ضرورية لأسباب عدة منها أن تظهر فرنسا للعرب وجنودها أنه ليس هنالك في الجزائر عراقيل يمكن أن توقف زحفها على البلاد بأسرها).

ويبقى مؤلف الدكتور علي زيكي إشارة انطلاق نحو استكمال التحرر الثقافي من التبعية الفرنسية التي فرضت علينا شخصية طوكفيل كرجل فكر وديمقراطية وهو مشبع بقيم الاستعمار الذي يحرق كل شيء من أجل الوصول إلى غايته.

خاتمة

خاتمة

وفي الأخير لقد أفضت بنا دراسة كتابات طوكفيل عن الجزائر 1837-1847م، إلى كشف النقاب والإجابة عن العديد من الإشكالات والاستفهامات المطروحة واستخلاص بعض الاستنتاجات جوهرية أهمها:

- أنه كان لشخصية ألكسيس دو طوكفيل دور بارز في السياسة الاستعمارية ورؤيته لها، فهو كان من المؤيدين لفكرة الاحتلال، حيث حاول البحث عن الطرق التي تستطيع بها فرنسا الاحتفاظ بالجزائر، وكان من أسند المتحمسين لفكرة الاستيطان والداعين له، والمدافعين كذلك عن المستوطنين وذلك بتوفير الشروط الكافية اللازمة والمشجعة لهم على الاستقرار بالجزائر.

- إن احتفاظ فرنسا بالجزائر يعتبر من قبل المصلحة الوطنية العليا، وإن أهمية المستعمرات في تصوره لا يعود للفائدة الاقتصادية التي تجنى منها، وكان من المؤمنين باستعمال القوة لإخضاع الجزائريين، حيث اعتبر الحرب هي سياسة القوة، واعتبر الحرب كذلك الوسيلة المحققة لأحلام فرنسا في التوسع.

- لم يكن طوكفيل مؤيدا لفكرة الاستعمار فحسب، بل كان مرشدا له، وكان من مناصري الاحتلال الجزئي، المقرون باستيطان مكيف، وبمدى صلاحية المناطق للاستغلال، كان خبيرا بالشؤون الجزائرية، لذلك كان يرى أن فرنسا في الجزائر لا تواجه جيشا، وإنما شعبا بأسره، وكان يرى في الحركة الدائمة للقبائل الصعوبة التي تعرقل مشروع الاستعمار.

- كما أن موقف طوكفيل من المسألة الجزائرية وضع الكثير من أفكاره النظرية على المحك، وبدا الفرق واضحا بين المثل التي رفعها، وموقفه وسلوكه اتجاه الجزائر، لذلك هناك فرق بين طوكفيل المفكر، وبين طوكفيل السياسي، فقد ظهر كشخصية متحررة بل وثائرة على الكثير من الأفكار والممارسات السائدة في عصره، وهذا ما جلب له الكثير من التقدير والاحترام، وتميز بالعمق في التحليل المصبوغ في الكثير من الأحيان بالطابع الفلسفي والأخلاقي، ويعد من عمالقة مفكري القرن 19.

حيث أن هذا الرجل يرتبط ارتباطا وثيقا ووشيجا بالنظام الديمقراطي، ومتى ذكر اسم ألكسيس دو طوكفيل إلا واستحضرنا تساؤلاته وأطروحاته عن الديمقراطية كنمط حكم وكمؤسسة وكنظام وجود وكمسلكيات جديدة لإنسان الحديث الذي يريد أن يؤسس العلاقة بينه وبين غيره، على مبدأ القانون وعلى منطلقات أساسها دولة الحق وأساسها هي الحرية والمساواة والعدل وغيرها من المفاهيم التي تدخل في إطار البلاقريم الديمقراطي الحداثي، بل كل ما ذكرنا اسم ألكسيس إلا وظهرت الديمقراطية باعتبارها حتمية الأزمنة الحديثة، ولا يمكن لشعب أو لأمة أو نظام أن يلج باب الحداثة بامتياز إلا إذا اعتمد على النظام الديمقراطي، ولكن إلى جانب هذا التفكير والبحث والنبش في الديمقراطية ثوابتها ومصادراتها

ومعاييرها وحدودها يظهر ألكسيس آخر في حلة رمادية في صيغة معتمة غير رسمية، حلة ألكسيس طوكفيل منظر الاستعمار فنحار هنا ونجد أنفسنا بين وجهتين لنفس الرجل بجانب ظاهر وجانب ثاوي، ونحار أي الجانبين يمثل فكرة حقيقية، فهناك ضرب من الانتقادية الفكرية تجعل الديمقراطية في صعيد والاستعمار في صعيد آخر، حيث سنقف في هذه الخاتمة عند ألكسيس منظر الكلونيالية ومهندس الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وهذا الجانب كثيرا ما يتم طمسه وإغضاء الطرف عنه لأنه لا يتناسب مع التلقي العام مع الفكر الفلسفي السياسي الليبيرالي الذي يريد أن يجعل الديمقراطية عنوانه ومرتكزه.

لكن رغم كل هذه التناقضات الفكرية إلا أنه يبقى ألكسيس من أهم المصادر الفلسفية التي يمكننا الاعتماد عليها في البحث العلمي التاريخي للجزائر.

قائمة البيبلوغرافيا

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

1- دوطوكفيل ألكسيس، **الديمقراطية في أمريكا**، ترجمة وتعليق: أمين مرسى، تصدير: محسن مهدي.

2- ----------، **النظام والديمقراطية والثورة**، تر: خليل كلفت، ط 01، المركز القومي للترجمة، 2010م.

3- ----------، **كتابات دو طوكفيل عن الجزائر 1837-1847 (طوكفيل بين الديمقراطية والاستبداد)**، تر: الأستاذ علي زيكي، ط 01، دار الجائزة للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، 2016م.

4- ----------، **نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان**، تر: إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، 2008م.

ثانيا: المراجع

أ- الكتب

1- البهي محمد، **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الفرنسي**، ط04، مكتبة وهبة عابدين، د. س. ن.

2- الجمل شوقي عطاء الله، عبد الله عبد الرزاق، **تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة**، القاهرة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 2000م.

3- الهواري عدي، **الاستعمار الفرنسي في الجزائر: سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960م**، تر: عبد الله جزيف، ط 01، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1983م.

4- بن داهة عدة، **الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1962م**، ج 01، د. د. ن، الجزائر، 2008م.

5- سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954)**، ج 06، ط 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

6- سعد الله أبو القاسم، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال**، طبعة خاصة، عالم المعرفة، الجزائر، 2011م.

7- سوبول ألبير، **تاريخ الثورة الفرنسية**، تر: جورج كوسي، ط 04، منشورات البحر المتوسط وعويدات للنشر، بيروت، 1979م.

8- شارل أندري جوليان، **تاريخ الجزائر المعاصرة الغزو وبدايات الاحتلال 1827-1871م**، ج 01، دار الأمة، الجزائر، 2013م.

9- عيساوي محمد، **الجرائم الفرنسية بالجزائر أثناء الحكم العسكري 1830-1871**، د. ط، دار كنوز الحكمة، الجزائر، 2011م.

10- لوكور غرنميزون أوليفي، **الجمهورية الإمبراطورية في سياسة الدولة العنصرية**، تر: مسعود حاج مسعود، دار القصبة، طبعة خاصة، الجزائر، 2009م.

11- ليس دان، **الثورة الامريكية (دوافعها ومغزاها)**، تر: سامي ناشد، القاهرة، 1966، ج 02.

12- مزيان سعدي، **جرائم فرنسا في الجزائر من الجنرال بيجو إلى الجنرال "أوساريس" صفحات مظلمة من تاريخ الجزائر**، الاستعمار الفرنسي في الجزائر من خلال 1830 إلى الاستقلال 1962، دار الهومة، 2009، الجزائر.

13- مسييرو فرنسوا، **سانت آرنو أو الشرف الضائع**، ترجمة: أحمد بكلي، مراجعة: مسعود حاج مسعود، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2005م.

14- مناصرية يوسف، **مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832-1847م**، الجزائر، ط. خ، وزارة المجاهدين، 1990م.

15- هارفي مانسفيلد، **طوكفيل**، تر: مصطفى محمد فؤاد، مراجعة: هاني فتحي سليمان، ط 01، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2016م.

16- هوبز إيرك، **عصر الثورة**، تر: فايز الصايغ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008م.

ب- الرسائل الجامعية

1- بوجناح دليلة، **الفكر الاستعماري وتطوره خلال القرن من خلال النظريات والممارسات**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 02، 2010-2011م.

2- سحن سعيد، **الاستيطان من منطقة الونشريس والسرسر ورد فعل المقاومة الجزائرية 1830-1930**، مذكرة ماجستير، التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2007-2008م.

ج- المقالات بالعربية

1- المصباحي حسونة، **ألكسيس دوطوكفيل واستعمار الجزائر**، مقال من جريدة الشرق الأوسط الالكترونية، العدد 8292، أوت 2001م.

2- عنيبة عفاف، **الرؤية الاستعمارية لألكسيس دي طوكفيل: الجزائر أنموذجا**.

د- المعاجم والقواميس

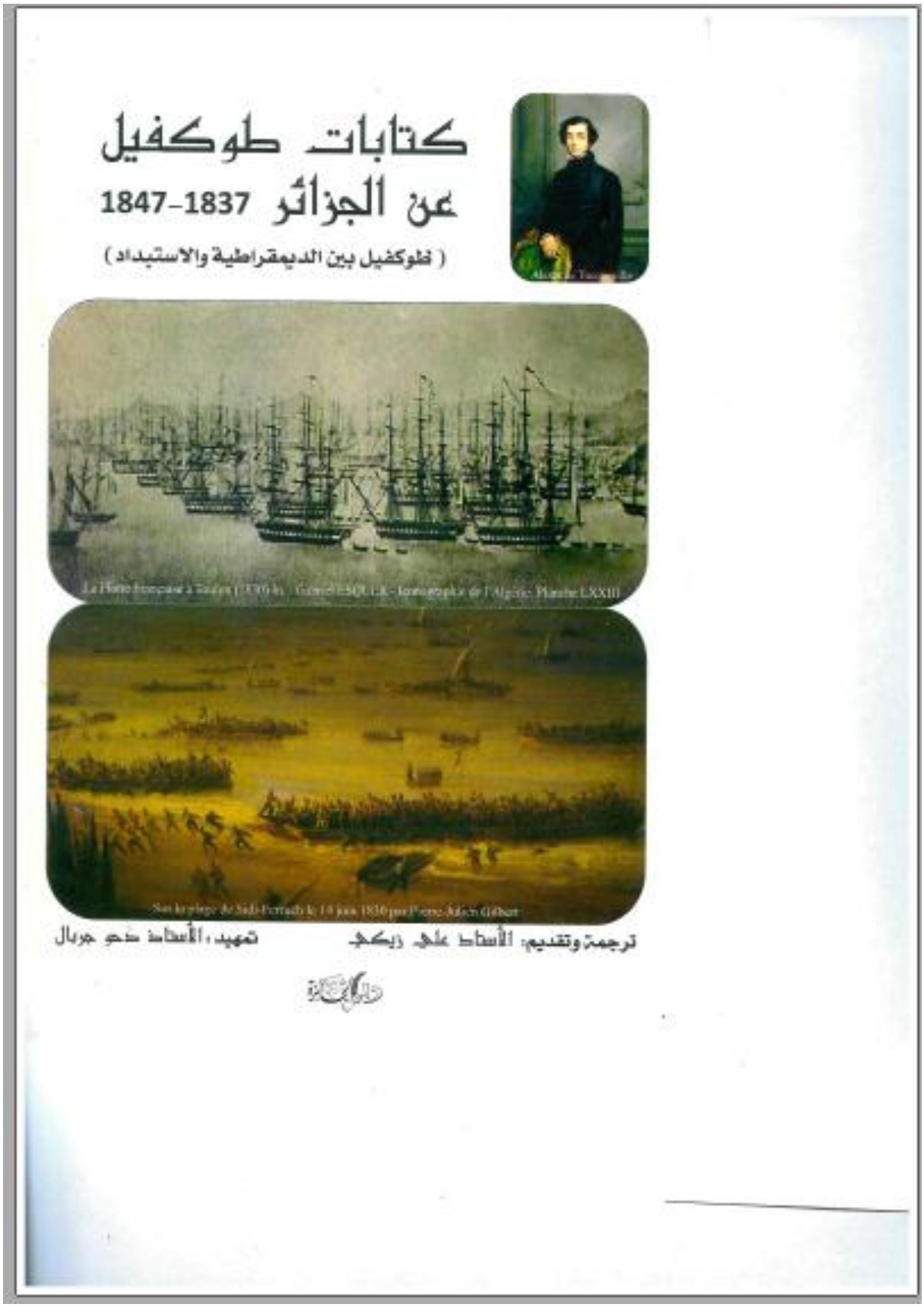
1- نويهض عادل، **معجم أعلام الجزائر**، ط 02، بيروت، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، 1980م.

هـ - المواقع الإلكترونية

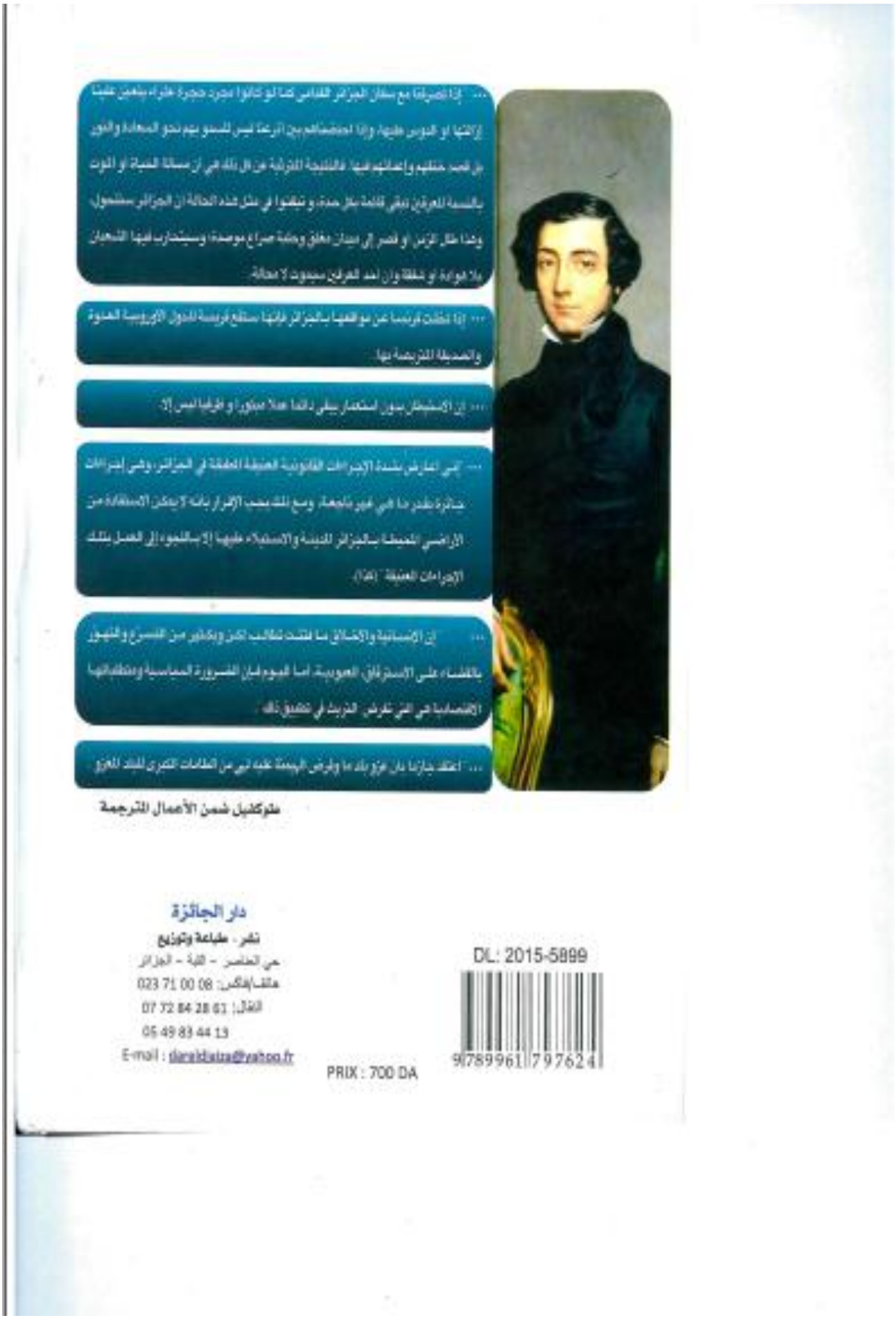
1- www.wikipedia.fr

الملاحق

الملحق رقم (1): الواجهة الأمامية للكتاب



الملحق رقم (2): الواجهة الخلفية للكتاب


... إذا تصرفنا مع سكان الجزائر القدامى كما لو كانوا مجرد حجرة خلو، يتعين علينا إزاحتها أو الدوس عليها، وإذا تجاوزنا الحوالي الأربعة ليس للسؤ يتم نحو المعاداة والدور بل قصد تعليمهم وإصلاحهم فيها. فالنتيجة المترتبة عن كل ذلك هي أن مسألة الحياة أو الموت بالنسبة للعرقين تبقى قائمة بكل حدة، و تبقوا في مثل هذه الحالة أن الجزائر ستشمل وهذا طال الزمن أو قصر إلى ميدان مغلق وحلبة صراع موصدة، وستتحارب فيها السكان بلا هوادة أو شفقة وان أحد العرقين سيموت لا محالة.

... إذا تخلت فرنسا عن مواقفها بالجزائر فإنها ستقع فريسة للدول الأوروبية العدوة والمحيطة المتربصة بها.

... إن الاستيطان بدون استعمار يبقى دائما هشا مبتورا و فرقيا ليس إلا.

... إني أعارض بشدة الإجراءات القانونية العنيفة المطبقة في الجزائر، وهي إجراءات جائرة بقدر ما هي غير ناجعة. ومع ذلك يجب الإقرار بأنه لا يمكن الاستفادة من الأراضي المتبقاة بالجزائر للدينة والاستيلاء عليها إلا بالتلجوء إلى العمل بتلك الإجراءات العنيفة" (ق).

... إن الإنسانية والأخلاق ما فتئت تطالب الكثير ويكثير من التسرع و التهور بالقضاء على الاسترقاق العبودية. أما اليوم فإن الضرورة السياسية وتطلباتها الاقتصادية هي التي تفرض التريث في تطبيق ذلك.

... اعتقد جازما بأن عزو بلادنا وفرض الهيمنة عليه لي من الطلبات الكبرى للبلد المعزو

ملوكاتيل شمن الأعمال المترجمة

دار الجائزة
نشر - طباعة وتوزيع
حي الحامصر - القبة - الجزائر
هاتف/فاكس: 023 71 00 08
النقال: 07 72 84 28 61
05 49 83 44 13
E-mail : dardjaiza@yahoo.fr

PRIX : 700 DA

DL: 2015-5899
9789961797624

الملحق رقم (3): صورة افتراضية لألكسيس دو طوكفيل في عام 1850م[1]



[1] سي مانسيفليد، مرجع سابق، ص 10.

الملحق رقم (4): قصر طوكفيل في نورماندي[1]



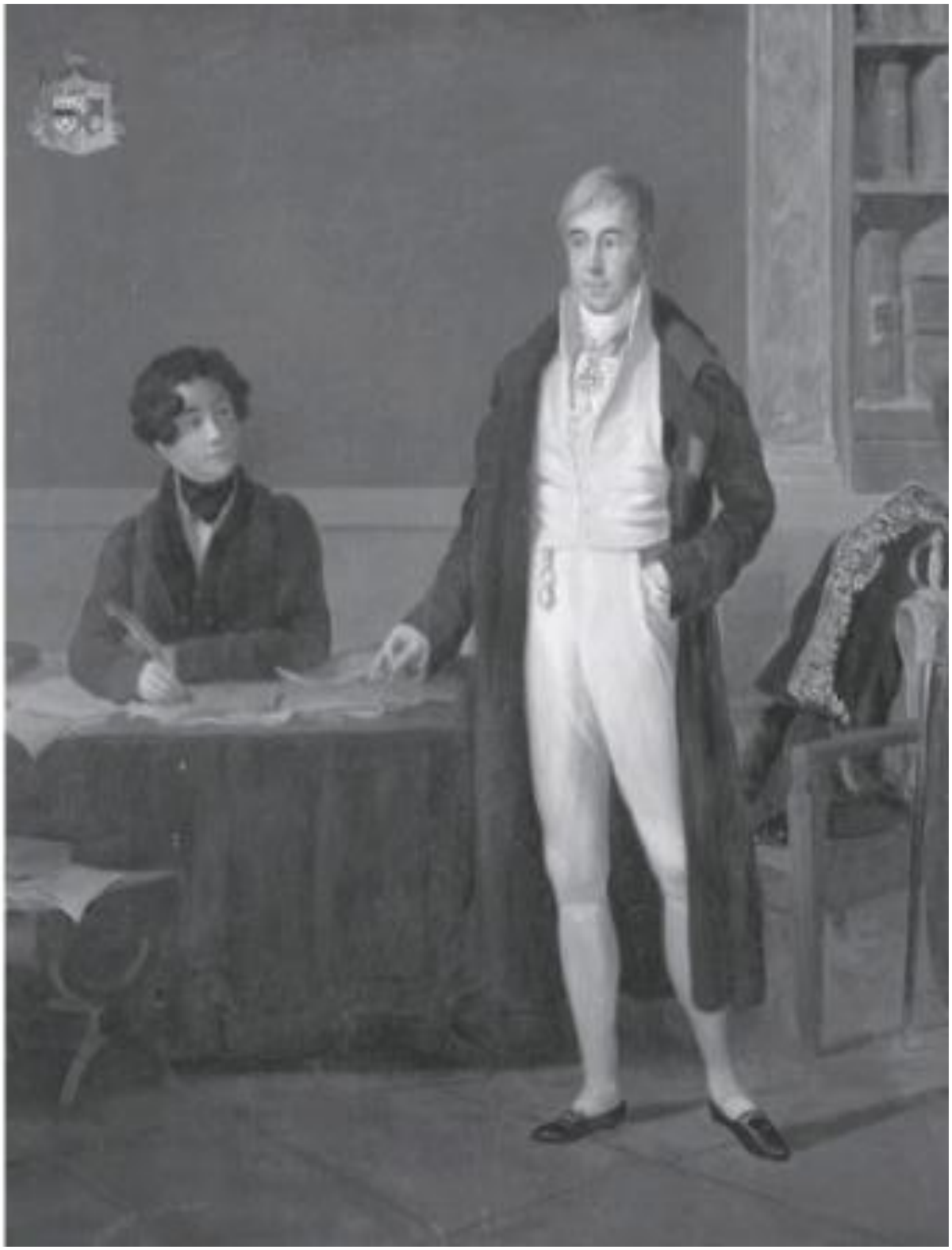
[1] سي مانسيفليد، مرجع سابق، ص 16.

الملحق رقم (5): ماري موتلي زوجة طوكفيل[1]



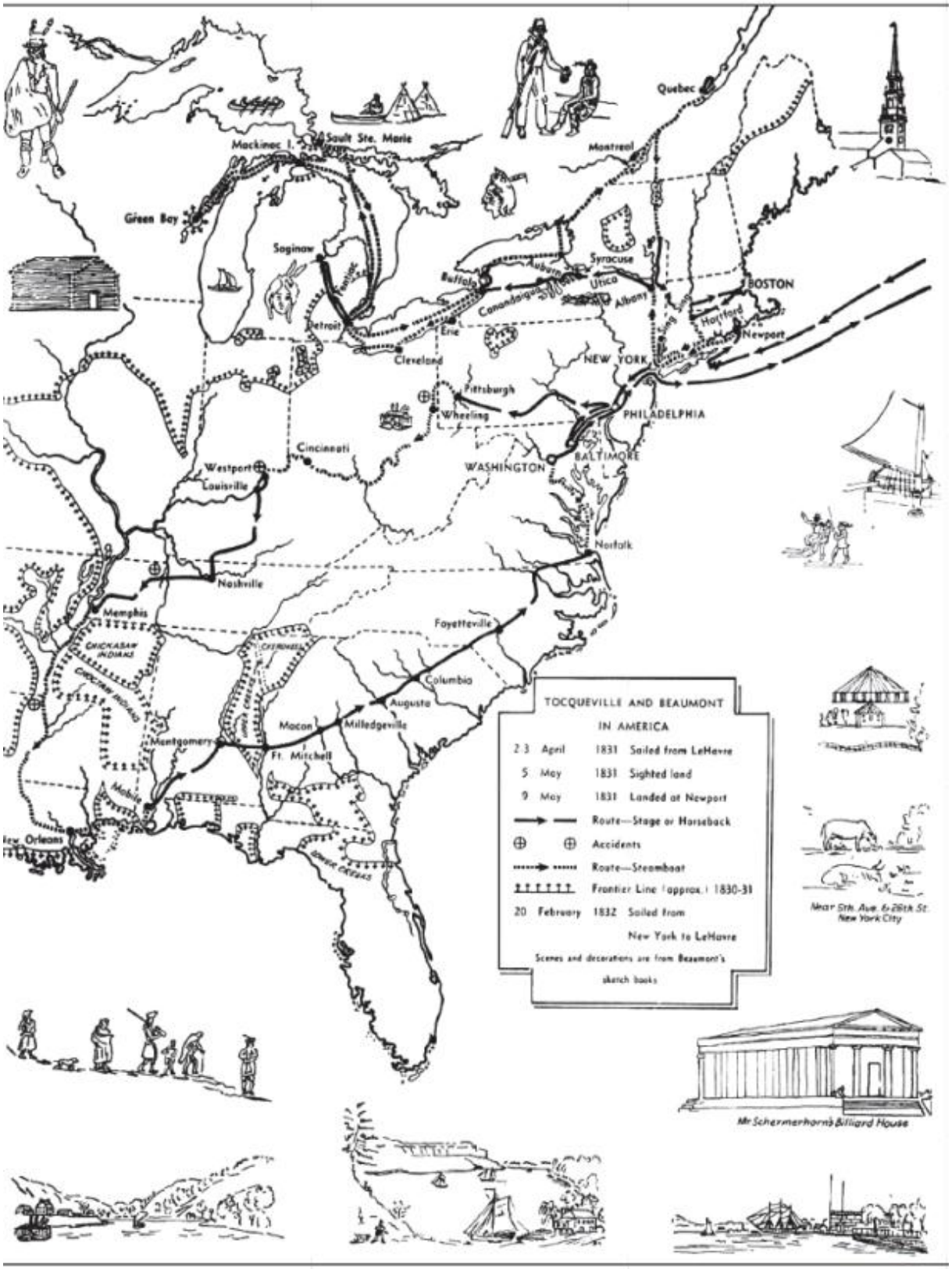
[1] سي مانسيفليد، مرجع سابق، ص 17.

الملحق رقم (6): طوكفيل في سن السادسة عشرة وهو يجلس إلى مكتب بجانب والده إيرفيه دي طوكفيل في عام 1822[1]



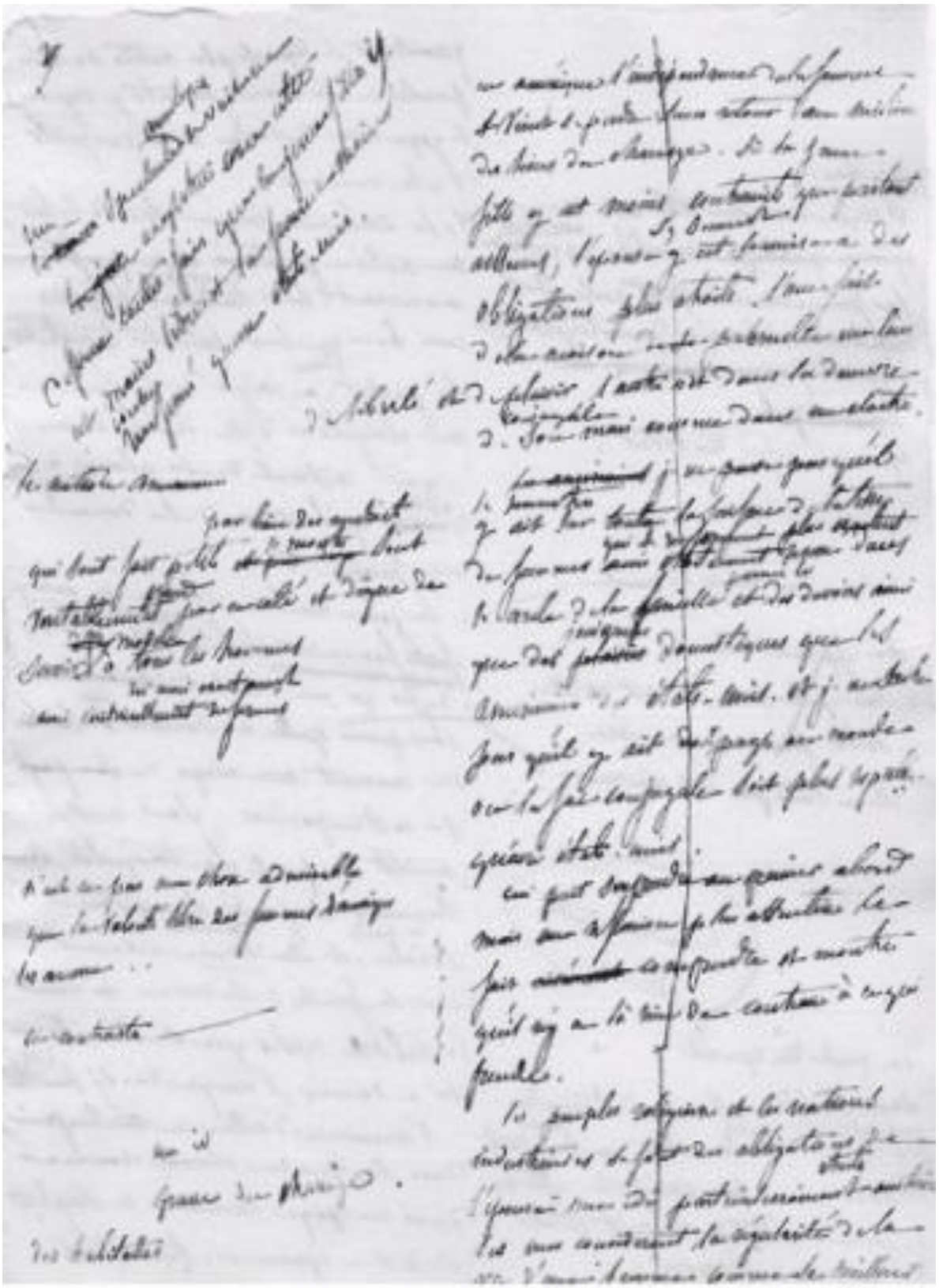
[1] سي مانسيفليد، مرجع سابق، ص 21.

الملحق رقم (7): أسفار طوكفيل وبومون في أمريكا بين عامي 1831-1832م[1]



[1] سي مانسيفليد، مرجع سابق، ص 35.

الملحق رقم (8): صفحة من المخطوطة الأصلية لكتاب طوكفيل "الديمقراطية في أمريكا"[1]



[1] سي مانسيفليد، مرجع سابق، ص 89.

الملحق رقم (9): لوحة رسمها طوكفيل لنفسه عندما كان وزيرا للشؤون الخارجية[1]



[1] سي مانسيفليد، مرجع سابق، ص 104.

الملحق رقم (10): صورة للبروفيسور علي زيكي[1]



[1] طوكفيل، **كتابات طوكفيل عن الجزائر 1837-1847م**، مصدر سابق، ص337.

الفهارس العامة

فهرس الملاحق

الرقم	العنوان	الصفحة
(1)	الواجهة الأمامية للكتاب	97
(2)	الواجهة الخلفية للكتاب	98
(3)	ألكسيس دوطوكفيل في عام 1850 م	99
(4)	قصر طوكفيل في نورماندي	100
(5)	ماري موتلي زوجة طوكفيل	101
(6)	طوكفيل في سن الـ 16 وهو يجلس إلى مكتب بجانبه والده إيرفيه دي طوكفيل في عام 1822م	102
(7)	أسفار طوكفيل وبومون في أمريكا بين عامي 1831-1832م	103
(8)	صفحة من المخطوطة الأصلية لكتاب طوكفيل "الديمقراطية في أمريكا"	104
(9)	لوحة رسمها طوكفيل لنفسه عندما كان وزيرا للشؤون الخارجية	105
(10)	صورة للبروفيسور علي زيكي	106

فهرس الأعلام

الأعلام	الصفحة
الأمير عبد القادر	55
بنجامين كونستان	23
بيجو	65
بيير بول روييه كولار	23
تودوروف	85
دحو جربال	39
ريبشيليو	24
شارل السابع	56
عفاف عنيبة	80
فالي	70
فرانسيسك دي كورسيل	23
فرنسوا جيزو	23
الفونس دي لامارتين	80
فيكتور هوغر	80
الكاردينالين مازاران	24
لاموريسيير	58

فهرس المحتويات

المحتويات	الصفحة
الشكر والتقدير	
الإهداء	
قائمة المختصرات	
مقدمة	11-8
مدخل تمهيدي	15-13
المبحث الأول: التعريف بطوكفيل وكتابه	
مدخل	17
المطلب الأول: السيرة الذاتية لطوكفيل	23-17
المطلب الثاني: أهم إنجازات طوكفيل	33-23
المطلب الثالث: طوكفيل والمسألة الجزائرية	38-33
المطلب الرابع: تقديم وتعريف الكتاب (بطاقة فنية)	42-39
المبحث الثاني: دراسة محتوى الكتاب	
مدخل	44
المطلب الأول: رسالة عن الجزائر	46-44
المطلب الثاني: ملاحظات عن رحلة إلى الجزائر	52-46
المطلب الثالث: الانشغال بالجزائر	70-53
المطلب الرابع: تقرير عن الجزائر	78-70
المبحث الثالث: نقد وتقييم الكتاب	
آراء مختلفة عن صاحب الكتاب	86-80

نقد وتقييم الكتاب والكاتب	88-86
خاتمة	91-90
قائمة المصادر والمراجع	95-93
قائمة الملاحق	106-97
فهرس الملاحق	II
فهرس الأعلام	III
فهرس المحتويات	V - IV